﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[1]

محسن الأسدي

شاءت السماء أن تجعل ابتلاءآت ومواقف كلّ من نبيّ الله إبـراهيم وزوجتـه السيدة هاجر وابنهما نبيّ الله إسماعيل تاريخاً خالـداً، ومشـروعاً إحيائيـاً عظيمـاً، تتلقاهما الأجيال المؤمنة بالتقدير والمتابعة، وبالذات عبر مناسك الحج والعمرة، فمـا حدث لهؤلاء الثلاثة في هجرتهم وسيرتهم وتنقلاتهم ومعانـاتهم، ومـا قـدّموه مـن جهود كبيرة مباركة في مكة أمّ القرى وما حولها؛ لعلّه لا فقط شكل أغلـب شـعائر الحج والعمرة، والتي تُحيي بها القلوب، وتزكوا بها النفوس، وتحسن بها السـير، بـل

---

١. الصافات : ١٠٧.

أحيا وادياً كان مهجوراً؛ وصفته السماء بأنه: ﴿.. غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾؛ وقد ابتدأ إبراهيم عليه السلام ذلك الإحياء عندما أسكن كلاًّ من زوجته هاجر وابنها الرضيع إسماعيل فيه.

﴿رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

وفعلاً تمَّ لإبراهيم عليه السلام ما تمنّاه، واستجاب الله تعالى دعاءه، حتى صار كلّ ذلك فيما بعد قاعدةً لانطلاق أعظم رسول وأعظم دين وأكمل شريعة، فكانﷺ خاتماً للرسل والأنبياء، وكانت شريعته خاتمةً للشرائع..

وأمثلة تلك الابتلاآت عديدة:

سعي هاجر بين جبلي الصفا والمروة سبعاً؛ "فذلك سعي الناس بينهما" هذا ما نسبه ابن عباس لرسول اللهﷺ، ولما رأى ابن عباس قوماً يسعون بين هذين الجبلين قال: «هذا ما أورثتكم أُمُّكم أُمُّ إسماعيل».

وقع هذا منها حين لم يكن لها حلٌّ لإنقاذ ابنها الرضيع من العطش، إلاّ أن تسعى وتهرول هناك، وقد بعدت قليلاً عن ابنها بحثاً عن قطرة ماء، وقد علا بكاؤه تارةً وصراخه وخفَّ أخرى حين مضَّه العطش حتى كاد أن يموت، لولا حكمة الله تعالى ورحمته أن تفجّرت بئر زمزم عن ماء، فشرب اسماعيل من عين عذبة؛ ليرتوي منها ضيوف الرحمن..

لقد صار سعيها ذاك منسكاً من مناسك الحج والعمرة .. ﴿إِنَّ الصَّفَا وَ الْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ

خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.[١]

ولما ارتفع بنيان البيت وضعف نبيُّ الله إبراهيم، وهو في شيخوخته، عن رفع الحجارة، قام على حجر، فصار هذا الحجر هو المقام المعروف بمقام إبراهيم، تؤدّا ركعتا الطواف عنده، وقد نزلت فيه الآية: ﴿**وَاتخَّذِوُا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾.[٢]

وما أن تمَّ بناء البيت برفع قواعده، وبوّأه الله تعالى، حتى أمر إبراهيم بتطهيره في آية، وأمره وألزمه وابنه إسماعيل بهذه المهمة في آية أخرى:

﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**﴾.[٣]

﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِك بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَ الْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾.[٤]

﴿**وَعَهِدْنَآ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾.[٥]

ووقع الأذان بالحج

﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍ**

---

١. البقرة : ١٥٨.

٢. البقرة : ١٢٥.

٣. البقرة : ١٢٧.

٤. الحج : ٢٦.

٥. البقرة : ١٢٥.

﴿عَمِيقٍ﴾.[١]

فصار منسكاً للطواف تتحدث عنه الآية:... ﴿... وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛[٢] وبيتَ عبادة: ﴿... لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[٣]

وهكذا عرفة؛ إمّا لأنّ آدم وحواء اجتمعا والتقيا فعرفها وعرفته بعد أن هبطا من الجنة، وإمّا لأنّ جبرئيل طاف بالنبيِّ إبراهيم يريه المشاهد فيقول له: «أعَرَفْتَ؟ أعَرَفْتَ»؟ فيرد إبراهيم: «عَرَفْتُ، عَرَفْتُ»، أو أنَّ جبرئيل غدا بإبراهيم إلى عرفات، فقال: هذه عرفات، فاعرف بها مناسكك واعترف بذنبك، فسمي عرفات...

وهكذا المزدلفة وهي المشعر الحرام... حين أفاض به وازدلفا إليها؛ فسميت المزدلفة.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾.

وكذا الكلام عن منى وقصة الذبيح ورمي الجمرات... حتى صارت جميعاً مناسك للحج على التفصيل الذي تذكره كتب التاريخ والتفسير والفقه...

لقد ظلت هذه الحوادث خالدة، ولازالت، وستبقى حتى نهاية الدنيا ومن عليها، فشكلت فقهاً خاصاً لمناسك مباركة؛ لفريضة مباركة راح يؤديها ملايين المؤمنين في كلِّ عام.

مقالتنا في هذا العدد من مجلة ميقات الحج، تتوقف عند منسك من مناسك الحج (النحر أو الذبح) وقد سمّاه القرآن الكريم (الهَدي) في آيات عديدة:
﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ

---

١. الحج : ٢٧.
٢. الحج : ٢٩.
٣. الحج ٢٦.

حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسرَ مِنَ الْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.[1]

وفي سورة المائدة ؛ الآية ٢ والآية ٩٧:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْىَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً...﴾.

﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَ الْقَلاَئِدَ...﴾.

والآية ٢٥ من سورة الفتح:

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾.

نقف عند أصل هذه الشعيرة التأريخي، الذي تحدث عنه التنزيل العزيز، وبالذات في المقطع القرآني من سورة الصافات عبر الفِداء الذي حملته الآية: **﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾**. وما سبقه من البشارة فالابتلاء عبر رؤيا نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، دون التعرض للأحكام الفقهيّة للهدي ..

إنّه فداءُ إسماعيل أو إسحاق بذبح عظيم، على الخلاف المذكور، والذي هو الموضوع المهم في هذه المقالة. وقد صار منسكاً من مناسك فريضة الحج، وهكذا رمي الجمرات، الذي كما في الأخبار اقترن بعملية تنفيذ رؤيا إبراهيم بذبح ابنه.

لقد منَّ الله تعالى على نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام وهو في شيخوخته حين

---

١. البقرة : ١٩٦.

استجاب لدعائه؛ فبشّرته السماء بالولد، وهو بلاشك ولاريب أعزّ عليه من نفسه ومن كلّ شيء، وإذ هو به كان مسروراً، يؤمر من قبل السماء بقتله، وبقتله بيده لا بيد آخرين، .. إنها رؤيا «ورؤيا الأنبياء حق وصدق» ونومهم ويقظتهم سواء!

إنّه لأمر عظيم وسابقة خطيرة.. نقف عند تلك البشارة، وعند ذلك البلاء المبين، وعند ذلك الذبح العظيم قرآنيّاً، وكيف صار الهدي فداءً يقدمه الحجيج، اقتداءً بنبيِّ الله إبراهيم، وقد انبثق منه فقه الأضاحي، كما في الآيات القرآنية أعلاه والروايات..

فبعد أن تحققت البشرى، سواء أكانت باسماعيل أو بإخيه إسحاق، فقد حصلت العبرة بالابتلاء واجتيازه بنجاح، حتى أنّ القرآن الكريم لم يذكر وهو في هذا المقطع المبارك أي اسم من الأخوين، لقد كان كلاهما ولدين لإبراهيم عليهمالسلام، فبأي واحد منهما فالبلاء المبين يتحقق، وأيهما وقع عليه الذبح، فالمعاناة والآلام واحدة، ولكن مع هذا سنقف عندهما؛ لنتعرف على الأدلة التي تساق فتثبت أيهما الذبيح دون الآخر، وقبل ذلك أيهما المبشر به قبل الآخر، فصاحب البشارة في هذا المقطع القرآني من سورة الصافات (٩٩ـ١١٣) يكون وبلا شك هو الذبيح:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ(١١٣)﴾.

مع الآية: **﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾**.

فما أن أنجاه الله تعالى، بأن جعل تلك النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه

السلام، كما جاء في الآيات:

*... **الأنبياء ٦٦ - ٧٠ : ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانْصُرُواْ آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾.**

وفي سورة العنكبوت ٢٤:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

حتى انطلق إبراهيم عليه السلام بدعائه: **﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾**. ليصبح شعاراً حقيقياً؛ لتركه قومه على ما هم فيه، بعد أن بذل جهوداً كبيرة في دعوتهم أن يتركوا الشرك ويعبدوا الله تعالى وحده، ولما انتهى أن لا فائدة منهم في الاستجابة لدعوته المباركة، انطلق، لا فراراً من مسؤولياته، ولا تخلياً عن أهدافه، ولا طلباً للراحة والاستجمام، بل ذاهباً بعبادته إلى ربّه؛ حيث يرى أنَّ العبادة تقع حين ينشر دعوة السماء، وحين يبثّها في أماكن أخرى يأمل أن يتحقق له فيها دينُ ربّه؛ ولنصرته في بقاع غير بقاع قومه، الذين أصرّوا على مواقفهم الرافضة له ولدعوته ولنصرته، وإلاّ فربُّه تعالى موجود معه، وهذا نظيرقوله عليه السلام في آية أخرى:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[١]

وإن كان هناك رأي أنَّ القائل هو لوط..

وفي التوحيد عن أميرالمؤمنين عليه السلام في جواب من اشتبه عليه من

---

١. العنكبوت : ٢٦.

الآيات، قال: «ولقد أعلمتك أن رُبّ شيء من كتاب الله تأويله على غير تنزيله ولا يشبه كلام البشر، وسأنبّئك بطرف منه، فيكفي إن شاء الله من ذلك قول ابراهيم: ﴿إنّى ذاهب إلىَ رَبِّى سَيَهْدِينَ﴾.

فذهابه الى ربّه توجّهه إليه عبادةً واجتهاداً وقربة الى الله جلّ وعزّ، ألا ترى أنّ تأويله على غير تنزيله؟![1]

وللرازي كلام طويل في قوله: ﴿إنّى ذَاهِبٌ إلىَ رَبِّى﴾، نكتفي بما ذكره في مقدمة المسألة الثانية أنّ فيه قولين:

الأول: المراد منه مفارقة تلك الديار، والمعنى: إني ذاهب إلى مواضع دين ربّي.

والقول الثاني: ذاهب بعبادتي إلى ربّي.

فعلى القول الأول المراد بالذهاب إلى الرب هو الهجرة من الديار، وبه اقتدى موسى حيث قال: ﴿كَلاَّ إنَّ مَعِىَ رَبّى سَيَهْدِينِ﴾،[2]

وعلى القول الثاني المراد رعاية أحوال القلوب، وهو أن لا يأتي بشيء من الأعمال إلا لله تعالى، كما قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ﴾.[3]

قيل: إنّ الأول أولى؛ لأنّ المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته إلى أرض الشام، وأيضاً يبعد حمله على الهداية في الدين؛ لأنه كان على الدين في ذلك الوقت إلاّ أن يحمل ذلك على الثبات عليه، أو يحمل ذلك على الاهتداء إلى الدرجات

---

١. الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني (ت١٠٩٠هـ).

٢. الشعراء : ٦٢.

٣. الأنعام : ٧٩.

العالية والمراتب الرفيعة في أمر الدين...[١]

ومن خواطر الشعراوي في الآية:

«أي: إلى مكان آخر، حيث أجد مَنْ يسمعني ويستجيب لدعوتي، وما دُمْتُ ذاهباً إلى ربي: ﴿سَيَهْدِينِ﴾. أي: يهديني المقام الطيب المناسب لدعوتي ..».

لقد كانت بحقٍّ هجرةً مباركةً؛ رغبةً في رضاه تعالى، فآتت ثمارها في مسيرة هذا النبيّ عليه السلام، وتركت بصماتها وآثارها على جميع مشاريع السماء التي جاءت بعد إبراهيم عليه السلام، والمتمثلة بالرسالات والرسل والأنبياء، حتى صار كلّهم تبعاً لمنهجه وشريعته وعقيدته الخالصة المستقيمة؛ لا زيغ فيها ولا انحراف.. إذن ما أعظمها من هجرة، وما أعظم بركاتها! وقد تحدثت عنها آيات كثيرة، منها:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[٢]

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾.[٣]

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.[٤]

---

١. تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ): الآيات بتصرف بسيط.

٢. النحل: ١٢٠-١٢٣.

٣. النساء : ١٢٥.

٤. الأنعام : ١٦١.

وإن كان الألم يعتصر قلبه أن لم يؤمنوا، فلعلّ نظراتـه وهـو يمشـي وحيـداً، تتوزع هنا وهناك؛ إلى ما كان قد ألفه من أرض وديار وأناس.

أولئك الذين خلفه ممن كانت تجمعه وإيـاهم علاقـات عديـدة مـن معرفـة وصحبة وقربى.. رغم أنهم أو كبراءهم أرادوا قتله إحراقاً، لقد فعلـوا لـولا إرادتـه تعالى أن أنجاه من كيدهم، ومما حاكوه وخططوا له.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾.[١]

﴿فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾.[٢]

إنها "هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية. هجرة يترك وراءه فيها كـلَّ شيء من ماضي حياته. يترك أباه وقومه وصحبه وأهله وبيته ووطنه وكلّ ما يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس. ويدع وراءه كذلك كلّ عائق وكلّ شاغل. ويهاجر إلى ربّه، متخففاً من كلّ شيء، طارحاً وراءه كلّ شيء، مسلماً نفسه لربّه لا يستبقي منها شيئاً. موقن أن ربّه سيهديه، وسيرعى خطـاه، وينقلـها في الطريـق المسـتقيم، إنهـا الهجرة الكاملة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها في النفس شيء. إنه التعبير عن التجـرد والخلـوص والاستسـلام والطمأنينة واليقين... ".[٣]

ابن عاشور: «لما نجا إبراهيم من نارهم صمّم على الخـروج مـن بلـده (أُور الكلدانيين) وهذه أول هجرة في سبيل الله للبعد عن عبادة غير الله. والتوراة بعـد أن طوت سبب أمر الله إياه بالخروج ذكر فيها أنه خرج قاصـداً بـلاد حَـران في أرض

---

١. الأنبياء : ٧٠.

٢. الصافات : ٩٨.

٣. سيد قطب، في ظلال القرآن، الآية :٩٩ الصافات.

كنعان (وهي بلاد الفينيقيين).

والظاهر: أن هذا القول قاله علنَاً في قومه؛ ليكفوا عن أذاهُ، وكان الأمم الماضون يُعدّون الجلاء من مقاطع الحقوق، قال زهير:

وإن الحقّ مقطعه ثلاث	يَمين أو نِفار أو جَلاء

ولذلك لما أُمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالهجرة من مكة لم يتعرض له قريش في بادئ الأمر، ثم خافوا أن تنتشر دعوته في الخارج، فراموا اللحاق به، فحبسهم الله عنه. ويحتمل أن يكون قال ذلك في أهله الذين يريد أن يخرج بهم معه، فمعنى: ﴿**ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي**﴾، مهاجر إلى حيث أعبد ربّي وحده ولا أعبد آلهة غيره، ولا أفتَن في عبادته كما فتنت في بلدهم. ومراد الله أن يفضي إلى بلوغ مكة؛ ليقيم هنالك أول مسجد لإعلان توحيد الله، فسلك به المسالك التي سلكها حتى بلغ به مكة وأودع بها أهلاً ونسلاً، وأقام بها قبيلة دينُها التوحيد، وبنى لله معبداً، وجعل نسله حفظة بيت الله، ولعلّ الله أطلعه على تلك الغاية بالوحي، أو سترها عنه حتى وجد نفسه عندها؛ فلذلك أنطقه بأن ذهابه إلى الله نطقاً عن علم أو عن توفيق. ويستظهر أنَّ جملة: ﴿**سَيَهْدِينِ**﴾، يجوز أن تكون حالاً؛ لأنه أراد إعلام قومه بأنه واثق بربّه وأنه لا تردد له في مفارقتهم، ويجوز أن تكون استئنافاً؛...».[1]

الدعاء:

إذن فقد هاجر نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، وكان يعقب قوله ذاك بدعاءٍ عظيم.

---

١. تفسير التحرير والتنوير : الآية.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.[١]

يسأله ذرية صالحةً، فكانت خلفاً طيّباً؛ أنبياء كانوا وأئمة وهداة..! لقد استجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرّد، الذي ترك وراءه كلّ شيء، وجاء إلى ربّه بقلب سليم..

وكأنه كان يخشى ما حدث لنوح عليه السلام أن كان له ابنٌ وصفه الله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، وبالتالي انتفت النبوّة عن ذريته؛ لأنها غير صالحة كما وصفها القرآن الكريم، وقد يتكرر المشهد مع ذريته، لهذا راح إبراهيم عليه السلام بعد أن سأل ربَّه ولداً يكون من الصالحين، ذريةً؛ يطيعونك يارب ولا يعصونك، يصلحون في الأرض ولا يفسدون.. لهذا صار يُكثر من أدعيته لذريته متمنياً أن تحظى بمنازل النبوّة والإمامة والصلاح، حتى لا نجد مورداً في التنزيل العزيز يطلب فيه من الله تعالى شيئاً إلا وتراه يطلبه لذريته، ومن ذلك:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾.[٢]

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ...﴾.[٣]

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ...﴾.[٤]

وفعلاً كم كان هذا النبيُّ عليه السلام موفقاً في ذهابه إلى ربِّه، فقد استجاب الله تعالى دعاءه، فكانت الذرية الصالحة، وكان الإسلام، وكانت النبوّة وكانت

---

١. الصافات : ١٠٠.

٢. إبراهيم : ٤٠.

٣. البقرة : ١٢٤.

٤. البقرة : ١٢٨.

الإمامة، وكانت الصلاة في ذريته عليه السلام: ﴿.. رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاةَ﴾!

وكانت تلك الأفئدة: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيَ إِلَيْهِمْ﴾!

وكانت تلك الثمرات: ﴿وَ ارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾!

إنَّها جميعاً أنعمُ الله تعالى على ذلك الوادي الذي كان محيطاً ببيته المبارك، ذلك هو: ﴿.. الْبَيْت ٱلْعَتِيـق﴾؛ ليكون قبلةً للناس، وأرض عبادة: ﴿... لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[١] وبالتالي، ﴿لِيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَـاتٍ .... ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

إذن كانت هجرته عليه السلام هجرةً مباركةً على العالمين، خالدةً في عطائها، في أنعمها، في منافعها إلى يوم الدين!

ابن عاشور: «وجملة: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، بقية قوله، فإنه بعد أن أخبر أنه مهاجر، استشعر قلة أهله وعقم امرأته، وثار ذلك الخاطر في نفسه عند إزماع الرحيل؛ لأن الشعور بقلة الأهل عند مفارقة الأوطان يكون أقوى؛ لأن المرء إذا كان بين قومه كان له بعض السلوّ بوجود قرابته وأصدقائه..».[٢]

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وعن ﴿هَـبْ﴾ في الآية وفي الكلام حذف، كما يقول القرطبي، أي هب لي ولداً صالحاً من الصالحين، وحذف مثل هذا كثير.

يقول الزمخشري: هب لي بعض الصالحين، يريد الولد؛ لأنّ لفظ الهبة غلب في الولد، وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَـا لَـهُ مِـن رَّحْمَتِنَـا أَخَـاهُ هَـارُونَ نَبِيّـاً﴾.[٣] ﴿وَوَهَبْنَـا لَـهُ إِسْـحاقَ

---

١. الحج : ٢٦.

٢. تفسير التحرير والتنوير : الآية.

٣. مريم: ٥٣ .

وَيَعْقُوبَ...﴾.[١] قال عزّوجلّ: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ**﴾.[٢] وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم ـ حين هنأه بولده عليّ أبي الأملاك ـ: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب. ولذلك وقعت التسمية بهبة الله، وبموهوب، ووهب وموهب، ...

ويعقب ابن عاشور على ما ذكره الزمخشري، من أنّ «لفظ الهبة غلب في الولد»، لعله يعني أنّ هذا اللفظ غلب في القرآن في الولد: ولا أحسبه غلب فيه في كلام العرب لأني لم أقف عليه .. هذا أولاً.

وثانياً: ﴿**مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، الذين قصدهم إبراهيم في دعائه، قد يكون طلب واحداً أو جمعاً ممن يتصفون بالصلاح يقف معه ويعينه في مشوار هجرته ودعوته، خاصة وقد نجاه الله تعالى من قومه وحيداً لم ترافقه إلاّ امرأته ولوط كان معه، ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**﴾.[٣]

وعن سبب وصفه بأنه من الصالحين، يقول ابن عاشور: «لأنّ نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحاً، فإنَّ صلاح الأبناء قُرة عين للآباء، ومن صلاحهم برُّهم بوالديهم»..[٤]

إنَّ من الواضح أنَّ دعاءه هذا جاء بعد هجرته من ديار قومه، وبعد سلامته من نار أوقدها له قومُه، فنجّاه الله تعالى إلى حيث تلك الأرض المباركة: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**﴾. مما يدلّ على أنه لم يرزق الولد في قومه،

---

١. الأنعام: ٨٤ .

٢. الأنبياء: ٩٠.

٣. الأنبياء : ٧١ .

٤. انظر التحرير والتنوير : الآية .

وخرج بزوجته الوحيدة سارة، وقد بلغت هي الأخرى عمراً، ليست قادرةً فيه على الإنجاب..

والدليل على أنه طلب الولد، يمكن استفادة ذلك من آية البشارة: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾، فالله تعالى بشره بعد دعائه بالغلام، لعلمه تعالى بموضوع إبراهيم وبرغبته الولد والذرية. وبتحقيق رغبته وما يصبو إليه تتحقق البشارة، وأثرها يكون أوقع في نفسه، وإن كانت زوجته عقيماً..

يقول ابن عاشور: «وكان عمر إبراهيم حين خرج من بلاده نحواً من سبعين سنة، وبعد أن أخبر أنه مهاجر، استشعر قلّة أهله، وعقم امرأته، وثار ذلك الخاطر في نفسه عند إزماع الرحيل؛ لأن الشعور بقلة الأهل عند مفارقة الأوطان يكون أقوى، لأن المرء إذا كان بين قومه كان له بعض السلوّ بوجود قرابته وأصدقائه...

ومما يدل على أنه سأل النسل ما جاء في سفر التكوين (الاصحاح الخامس عشر)، «وقال أبرام إنك لم تعطني نسلاً، وهذا ابن بيتي (بمعنى مولاه) وارث لي (لأنهم كانوا إذا مات عن غير نسل ورثه مواليه)».[1]

البشارة:

مما تفرّد به هذا النبيُّ إبراهيم عليه السلام هو تلك البشائر من قِبل السماء حملتها آيات عديدة، تتضمن ما سينعم الله تعالى عليه من ذرية وهو في مرحلة شيخوخته، وامرأته عجوز عقيم؛ ولنا أن نتصور، كم كانت فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته. لنا أن نتصور فرحته وقد بشّرته السماء

---

١. تفسير الكشاف؛ والجامع لأحكام القرآن؛ والتحرير والتنوير : الآية .

بغلام حليم، وجاءت هذه البشارة في آية واحدة: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾.[١]

وبغلام عليم؛ وهو ما نجده في المقاطع التالية:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾.[٢]

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.[٣]

وفي سورة الصافات، جاءت البشارة لإبراهيم باسم المُبشّر به وهو إسحاق:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.[٤]

كما أنّ تلك القصة جاء ذكرها في سورة هود: ٦٩ـ ٧٤. إلاّ أنّها بدل البشارة لإبراهيم ﴿بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾، جاءت لزوجته ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، فكانت صريحة بذكر اسم ذلك الغُلام العليم مضيفةً عليه ابنه من بعده، فيكون حفيداً لإبراهيم.

﴿...وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ... وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَاوَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً

---

١. الصافات : ١٠١.

٢. سورة الحجر: ٥١ ـ ٥٦ .

٣. سورة الذاريات: ٢٤ـ ٢٨ـ ٢٩ـ٣٠ .

٤. الصافات : ١١٢.

إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

كما أنَّ هذين الشخصين بالاسمين المذكورين وردا في سورة الأنبياء هبةً من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾**.[1]

ثمَّ إنّ هذه الهبة حصلت لإبراهيم عليه السلام في هذه الآية الكريمة بعد أمور وقعت لإبراهيم من قومه وما يعبدون من تماثيل، وكيده لها وكيدهم له، يبدأ هذا المقطع من الآية ٥١ حتى الآية ٧٣ من سورة الأنبياء.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾.

وانتهت محاورته مع قومه أن:

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُواْ آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

فتدخلت السماء هنا لتوقف كيدهم هذا:

﴿قُلْنَا يا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾.

ولم تكتف السماء بإنقاذه من النار، وتركه بينهم، بل نجّته من أيديهم إلى حيث تلك الأرض البعيدة عنهم:

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.

ثمَّ جاءت الآية ٧١ الأنبياء؛ لتبيّن نعمة أخرى ألا وهي إسحاق ويعقوب:

---

١. الأنبياء : ٧٢.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.

يتّضح من هذا أنَّ كلاً من البشارة تلك ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ والهبة سواء تلك التي وردت في الآية ١٠٠ الصافات: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وهذه بـ: ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، وقعتا بعد أن هاجر إبراهيم من ديار قومه بأمر الله تعالى.

لقد اختلفت آيات البشارة، فاثنتان تبشرانه بغلام عليم. الحجر:٥١ ﴿... وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾؛ الذاريات: ٢٨ ﴿... إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

وهو إسحاق كما هو صريح الآيات الأخرى أعلاه، وكما هو واضح من مجريات القصة. وقد توفرت فيها كل آيات البشارة، ولكن بغلام عليم، الواردة مرتين فقط، وكما هو واضح أنَّ المقصود بالبشارة فيها هو إسحاق، والعجوز العقيم أمُّه سارة، إذن فبضمّ كلّ هذه الآيات إلى بعضها، نعرف أنَّ المبشر به هو ليس إلاّ إسحاق، وهو محل اتفاق؛ لصراحة الآيات وللقرائن التي توفرت عليها المحاورة، التي وقعت بين الملائكة وسارة امرأة إبراهيم كما بُيّن في سورة هود، الآيات ٧١ـ٧٣:

﴿... وامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

وفي سورة الذاريات، الآيات: ٢٨ـ٣٠:

﴿... وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ* فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

وما وقعَ مثلها بينهم وبين إبراهيم كما قُصّ في سورة الحجر ٥١ـ٥٦، فحُكي هناك ما دار بينهم وبين سارة، وحكي هنا ما دار بينهم وبين إبراهيم والمَقام واحد، والحالة واحدة: البشارة بغلام عليم وهو إسحاق، وهذا لاخلاف فيه.

هذا في ما يخصُّ البشارة ﴿بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾.

وأما ﴿بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، فقد ورد لمرة واحدة، وفي آية واحدة فقط وهي الصافات :١٠١﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

وكلَّ ما وقع من اختلاف في الأخبار وبين الأعلام نجده في المقطع القرآني وآياته ٩٩ـ١١٣ من سورة الصافات، وفيها موضوع البشارة الأولى...، والرؤيا...، والفداء...، فالبشارة الثانية...

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ... * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فانْظُرْ مَاذَا تَرَى * قَالَ يا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ... * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * ... وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وقد توفّر هذا المقطع، الذي جاء بعد المقطع من الآية ٨٣ ـ ٩٨ والذي يتضمن موقف إبراهيم مما يعبد أبوه وقومه، وقد ختم بقولهم: **﴿قَالُوا ابْنُواْ لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ * فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾**.

وهو مثل ختام ذلك المقطع من سورة الأنبياء ٦٨ـ٧٠.

لقد توفّر هذا المقطع المبارك (الصافات ٩٩ـ١١٣) على بشارتين، تتوسطهما رؤيا إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ثمَّ بفدائه بذبح، وجميعها لم يُتعرض لها إلاّ في هذا المقطع من سورة الصافات دون غيرها من السور القرآنية ..

يصف سيد قطب هذه الحلقة من حياة وسيرة نبيِّ الله إبراهيم الخليل، وهي حلقة الرؤيا والذبح والفداء، بأنها "مفصّلة المراحل والخطوات والمواقف، في أسلوبها الأخاذ وأدائها الرهيب! ممثلةً أعلى صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم في عالم

العقيدة في تاريخ البشرية الطويل".[١]

أما البشارتان:

فالأولى:

﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾.

وقد جاءت بعد دعائه عليه السلام:

﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾

ابن عاشور: والحليم: "الموصوف بالحلم وهو اسم يجمع أصالة الرأي ومكارم الأخلاق والرحمة بالمخلوق. قيل: ما نَعَتَ الله الأنبياء بأقلّ مما نعتهم بالحلم".

أقول: لم يصف القرآن الكريم بالحلم إلاّ هذا الغلام في الآية المذكورة، وإلاّ أباه نبيّ الله إبراهيم ﴿**إِنَّ إِبرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾.[٢] ﴿**إِنَّ إِبرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّاهٌ مُنِيبٌ**﴾.[٣] أما شعيب فقد وصف من قبل قومه: ﴿**.. إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾.[٤]

" قيل: إنهم قالوا ذلك على وجه الهزؤ والتهكم وأرادوا به ضد ذلك أي السفيه الغاوي عن ابن عباس.

وقيل: إنهم قالوا ذلك على التحقيق أي أنك أنت الحليم في قومك، فلا يليق بك أن تخالفهم.

والحليم الذي لا يعاجل بالعقوبة مستحقها والرشيد المرشد". هذا ما ذكره

---

١. انظر في ظلال القرآن؛ الآيات .

٢. التوبة : ١١٤.

٣. هود : ٧٥ .

٤. هود : ٨٧ .

الشيخ الطبرسي في تفسيره.

الشيخ الطبرسي: ثم أخبر سبحانه أنه استجاب لإبراهيم دعاءه بقوله: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾. أي بابن وقور .. عن الحسن قال: وما سمعت الله تعالى نحل عباده شيئاً أجل من الحلم والحليم الذي لا يعجل في الأمر قبل وقته مع القدرة عليه...

القرطبي: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾. أي إنه يكون حليماً في كبره فكأنه بُشِّر ببقاء ذلك الولد؛ لأنّ الصغير لا يوصف بذلك،..

قال الزجاج: هذه البشارة تَدُلُّ على أنه مبشَّر بابنٍ ذَكَر، وأنه يبقى حتى ينتهيَ في السنّ ويوصَف بالحِلم..

أبو حيان: وأي حلم أعظم من قوله، وقد عرض عليه أبوه الذبح: ﴿**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾.[1]

مكتفيةً الآية بهذا الوصف، الذي سنرى آثاره على هذا الغلام، دون أن تُبين اسمه، فصار هذا موضع اختلاف.

وأما الرؤيا فهي رؤيا إبراهيم بذبح ذاك الذي وصفته الآية بأنه غلام حليم، بعد أن بُشر به، وبعد أن بلغ سنّاً تؤهّله أن يكون شاباً بالغاً عابداً عاملاً منتجاً..

وفي **مجمع البيان**: ثم أخبر سبحانه أنّ الغلام الذي بشَّره به ولد له وترعرع بقوله: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ**﴾، أي شبَّ حتى بلغ سعيه سعى إبراهيم عن مجاهد، والمعنى بلغ إلى أن يتصرف ويمشي معه ويعينه على أموره قالوا: وكان يومئذٍ ابن

---

١. انظر التحرير والتنوير؛ ومجمع البيان، للطبرسى؛ الجامع لأحكام، القرآن للقرطبي؛ وتفسير زاد المسير فى علم التفسير، ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ)؛ تفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ).

ثلاث عشرة سنة. وقيل: يعني بالسعي العمل لله والعبادة.[١]

والثانية:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

إذن فمَن المبشّر به؟ ومَن هو الذبيح؟!

إنَّ البشارة الأولى لنبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، وتبعاً لها قصة الذبيح، صارت لا فقط موضع اختلاف بين بعض علماء المسلمين وعلماء النصارى، بل موضع اختلاف أيضاً بين علماء المسلمين أنفسهم؛ وقبلهم بين الصحابة والتابعين، وحتى أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقد نُسبت إليهم أخبار، يتبين من بعضها أنَّ إسحاق هو متعلّق البشارة في سورة الصافات، وهو بالتالي يكون الذبيح، ومنها من تذهب إلى أنَّ إسماعيل هو المبشّر به وهو الذبيح.. من هذا يتضح دقّة هذا الموضوع، وصعوبة البتّ به، ولهذا اختلف الأعلام فيه..

فعلماء النصارى أجمعوا على أنّ المبشر به هو إسحاق، وكذا هو الذبيح، والتحق بهم بعض علماء المسلمين، فيما ذهب بعض آخر من علماء المسلمين إلى التفريق بين البشارة بإسحاق، التي حصلت في آيات قرآنية في (سورة الحجر، وهود، والذاريات) والبشارة، التي حصلت في سورة الصافات، والتي هي بإسماعيل.

علماً بأنّ القرآن الكريم سكت في هذا المقطع من سورة الصافات عن بيان ذلك صراحة، مكتفياً بذكر البشارة، التي اختلف في متعلقها أهو إسحاق أو إسماعيل؟ فيما البشارة الواردة في السور الأخرى، كانت تشير إما صراحة وإما من خلال القرائن أنَّ المبشر به هو إسحاق، فلم يقع الاختلاف، إنما وقع في المقطع القرآني من

---

١. مجمع البيان، للطبرسي.

سورة الصافات؛ لعدم تصريحه لا باسم المبشّر بـه ولا باسـم الـذبيح، لكـن المقطـع المذكور وإن لم يكن صريحاً في ذلك، إلاّ أنَّ المؤكد أنَّ الذبيح هو الغلام المبشر بـه في هذا المقطع، والموصوف بالحلم، كما أنَّه لا يخلو من قرائن استُفيد منها للدلالة علـى أنَّ الغلام الحليم هو إسماعيل، وبما أنه هو المبشّر به، فهو الـذبيح بحسـب السـياق، وهو الملقب بذبيح الله، ومن ذهب إلى أنَّ البشارة هنا في الصـافات لا تختلـف عـن تلك التي هي في السور الأخرى المذكورة، فيكون المبشر بـه عندئـذ هـو إسـحاق، ويحمل الصفتين معاً فهو غلام عليم وهو نفسه غلام حليم، و هو الذبيح.. وهو:

الابن الأكبر لإبراهيم عليه السلام، على رأي القرطبي القائل: "بشّر ﴿**بِغُلامٍ حَلِيمٍ**﴾، وذلك قبل أن يتزوّج هاجر، وقبل أن يولد له إسماعيل، وليس في القرآن أنه بُشر بولد إلاّ إسحاق".[1]

أقول: صحيح أنَّ القرآن الكريم، لم يهتم بمن هو الأكبر منـهما، لكـن يمكـن استفادة ذلك من أنَّ التنزيل العزيز، الذي لم يأت على ذكـر الغلامـين أو الأخـوين النبيين معاً في أي موضع منه، إلاّ قدّم ذكر إسماعيل على إسحاق، ولعـلّ مـن هـذا التقديم يُستفاد أنَّ إسماعيل هو الأكبر، لاحظ حين راح إبراهيم يحمـد الله تعـالى في الآية ٣٩ من سورة إبراهيم:

﴿**أَلْحَمْـدُ لِلّهِ الَّـذِى وَهَـبَ لِي عَـلَى الْكِـبَرِ إِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَـمِيعُ الدُّعَآءِ**﴾.

وهذا اعتراف من إبراهيم بـنعم الله سـبحانه، وراح يحمـد الله تعـالى علـى إحسانه بأن وهب له على الكبر؛ كبر سنّه ولدين.

ولعلّه قدّم ذكر إسماعيل أيضاً؛ لأنه المعني بمكة وما يخصّ البيت الحرام، فقـد

---

١. الجامع لأحكام القرآن: الآيات في سورة الصافات.

جاءت هذه الآية ضمن سياق آيات يتوفر على مجموعة من أدعيته عليه‌السلام لمكة والوادي والبيت الحرام..

﴿... وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ *... الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾.

ولكن التقديم هذا ورد في آيات أخرى أيضاً: فعن سؤال يعقوب بنيه، جاءت الآية ١٣٣ من سورة البقرة:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

الشيخ الطبرسي: وإنما قدم ذكر إسماعيل على إسحاق؛ لأنه كان أكبر منه، وإسماعيل كان عمّ يعقوب، وجعله أباً له؛ لأنّ العرب تسمي العمّ أباً كما تسمي الجد أباً، وذلك لأنه يجب تعظيمهما كتعظيم الأب؛ ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «ردّوا عليَّ أبي». يعني العباس عمّه.

وفي الإيمان بجميع الرسل والنبيين، تأتي الآية ١٣٦ من سورة البقرة:

﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

والآية ٨٤ من سورة آل عمران:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وفي الحوار حول ابراهيم وولديه وحفيده ، تأتي الآية ١٤٠ من سورة البقرة: **﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾**.

وفيما يتعلق بالوحى، تأتي الآية ١٦٣ من سورة النساء :

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾.

نلاحظ في كلّ هذه الآيات القرآنية مجيء إسماعيل بعد إبراهيم مباشرةً وقبل أخيه إسحاق، حينما يقترنا في آية..

هذا ويقول الرازي: وإنما ذكر قوله: **﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾**، لأنّ المنّة بهبة الولد في هذا السّنّ أعظم، من حيث إنّ هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة في وقت اليأس من أعظم النعم، ولأنّ الولادة في تلك السّنّ العالية كانت آية لإبراهيم.. وعلى في قوله: **﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾**، بمعنى مع كقول الشاعر:

إني على ماترين من كبري	**أعلم من حيث يؤكل الكتف**

وهو في موضع الحال ومعناه: وهب لي في حال الكبر.

وقد اختلف في سنّه هذا، يقول الرازي: اعلم أنّ القرآن يدلّ على أنه تعالى إنما أعطى إبراهيم عليه السلام هذين الولدين أعني إسمعيل وإسحاق على الكبر والشيخوخة، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن وإنما يرجع فيه إلى الروايات.

والروايات مختلفة، فعن ابن عباس أنّه قال: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة، وروي أنه ولد له

إسماعيل لأربع وستين. وإسحاق لتسعين. وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلاّ بعد مائة وسبع عشرة سنة.[١]

صحيح أنَّ البشارة بأي منهما تريح قلب إبراهيم وتفرحه.. وصحيح أنَّ الابتلاء لإبراهيم بأي منهما أن يكون هو الذبيح، يوجع قلبه، وقد وقع له ذلك وهو في وقت كونه شيخاً كبيراً، فقد جاءه الولد المذكور على كِبر سنّه، وهو أحبّ إليه من نفسه، وإذا به يُؤمر بقتله وبيده.. لقد كان معروفاً بأنه صاحب الابتلاآت والاختبارات الكثيرة، وعرف بأنه كما وصفته السماء كان خاشعاً مطيعاً لربّه فيما أمره وفيما نهاه وفيما ابتلاه.. قائماً بشكر نعمة ربّه عليه. ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ ... * شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ ...**﴾.[٢] لهذا ما من ابتلاء إلاّ خرج منه وقد سجل فوزاً عظيماً ودرجةً رفيعةً..

لكنَّ هذين السؤالين في المقطع القرآني ٩٩ـ١١٣ من سورة الصافات، صارا موضع الكلام بين الصحابة والتابعين والمفسرين، فالمتفق عليه بينهم في أنّ المبشّر به، الموصوف بأنه غلام حليم هو الذبيح، دون أن يذكر اسمه صراحةً، ولعلَّ السبب في عدم ذكر الذبيح باسمه، يقول ابن عاشور الذي يذهب إلى أنه إسماعيل:

«وقد أشارت هذه الآيات إلى قصة الذبيح ولم يسمه القرآن؛ لعلّه لئلا يثير خلافاً بين المسلمين وأهل الكتاب في تعيين الذبيح مِن ولدَيْ إبراهيم، وكان المقصد تألف أهل الكتاب لإقامة الحجة عليهم في الاعتراف برسالة محمدﷺ وتصديقِ القرآن، ولم يكن ثَمة مقصد مهمّ يتعلق بتعيين الذبيح، ولا في تخطئة أهل الكتاب في تعيينه، وأمارة ذلك أن القرآن سمّى إسماعيل في مواضع غيرِ قصة الذبح، وسمَّى

---

١. مجمع البيان، للطبرسي؛ تفسير الرازي؛ وتفسير الكشاف، الزمخشري (ت٥٣٨هـ).

٢. النحل :١٢٠ – ١٢٢.

إسحاق في مواضع، ومنها بشارة أمّه على لسان الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لُوط، وذكر اسمَيْ إسماعيل وإسحاق أنهما وُهبا له على الكِبر، ولم يسمّ أحداً في قصة الذبح قصداً للإبهام مع عدم فوات المقصود من الفضل؛ لأنّ المقصود من القصة التنويه بشأن إبراهيم، فأي ولديه كان الذبيح كان في ابتلائه بذبحه وعزمه عليه، وما ظهر في ذلك من المعجزة تنويهٌ عظيم بشأن إبراهيم.

وقال الله تعالى :

﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلاَّ بِالَّتى هِىَ أَحْسَنُ**﴾.[1]

وقال النبيُّ صلى الله عليه وآله: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم».[2]

لقد كان ذلك سبباً لاختلافهم في الغلام الحليم؛ أهو إسماعيل أو هو إسحاق، وبالتالي يكون هو الذبيح. ولكلٍّ حججه وأدلته؛ **حتى صاروا طوائف ثلاثاً:**

الطائفة الأولى: لاذت بالسكوت فلم تبدِ رأياً ولم ترجح قولاً. وفوّضت علم ذلك إلى الله تعالى؛ ومنها الزجاج فقد قال: الله أعلم أيهما الذبيحين.

ويظهر لي أنّ الفخر الرازي تبع الزجاج في ذلك، فبعد أن أورد أدلة الفريقين، انتهى إلى التالي: وكان الزجاج يقول: الله أعلم أيهما الذبيح، والله أعلم.

ثم قال: واعلم أنه يتفرع على ما ذكرنا اختلافُهم في موضع الذبح، فالذين قالوا: الذبيح هو إسماعيل قالوا: كان الذبح بمنى، والذين قالوا: إنه إسحاق قالوا: هو بالشام وقيل ببيت المقدس، والله أعلم.

جاء رأيه هذا بعد أن أورد ستة أدلة تبناها الفريق القائل بأنّ إسماعيل هو الذبيح، يقابلها وجهان احتجّ بهما من قال: إنّ ذلك الذبيح هو إسحاق، فقد ذكرها

---

١. العنكبوت : ٤٦.

٢. تفسير التحرير والتنوير : الآية .

في المسألة الثانية، بعد أن ذكر من نسب إليه القول بأنّ الذبيح هو إسحاق: وهم عمر وعلي والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل.

وأما من ذكر أنه إسماعيل، فهم ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي.

قال: واحتج القائلون بأنه إسماعيل بوجوه:

الأول: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أنا ابن الذبيحين».

وقال له أعرابي: يا ابن الذبيحين، فتبسم، فسئل عن ذلك فقال: إنّ عبد المطلب لما حفر بئر زمزم، نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده، فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له: افد ابنك بمائة من الإبل، ففداه بمائة من الإبل، والذبيح الثاني إسماعيل.

الحجة الثانية: نقل عن الأصمعي أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عقلك، ومتى كان إسحاق بمكة، وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة؟

الحجة الثالثة: أنّ الله تعالى وصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق في قوله: ﴿**وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ**﴾.[1]

وهو صبره على الذبح، ووصفه أيضاً بصدق الوعد في قوله: ﴿**إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ**﴾.[2]

لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به.

---

١. الأنبياء : ٨٥.

٢. مريم : ٥٤.

الحجة الرابعة: قوله تعالى: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾.

فلو كان الذبيح إسحاق؛ لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب منه أو بعد ذلك.

فالأول باطل، لأنه تعالى لما بشرها بإسحاق، وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه، وإلاّ حصل الخلف في قوله: ﴿**وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾.

والثاني باطل، لأنّ قوله: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾، يدل على أنّ ذلك الابن لما قدر على السعي ووصل إلى حدّ القدرة على الفعل، أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه، وذلك ينافي وقوع هذه القصة في زمان آخر، فثبت أنه لا يجوز أن يكون الذبيح هو إسحاق.

الحجة الخامسة: حكى الله تعالى عنه أنه قال: ﴿**إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾.[1]

ثم طلب من الله تعالى ولداً يستأنس به في غربته فقال: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾.[2]

وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد؛ لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد، لأنّ طلب الحاصل محال، وقوله: ﴿**هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، لا يفيد إلاّ طلب الولد الواحد، وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكأنّ قوله: ﴿**مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾. لايفيد إلاّ طلب الولد الواحد، فثبت أنّ هذا السؤال لا يحسن إلاّ عند عدم كلّ الأولاد، فثبت أنّ هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول، وأجمع الناس على أنّ إسماعيل متقدم في الوجود على إسحاق، فثبت أنّ

---

١. الصافات : ٩٩.

٢. الصافات : ١٠٠.

المطلوب بهذا الدعاء وهو إسماعيل، ثم إنّ الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح، فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل.

الحجة السادسة: الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة، فكأن الذبيح بمكة. ولو كان الذبيح إسحق كان الذبح بالشام .

واحتج من قال إنّ ذلك الذبيح هو إسحاق بوجهين:

الوجه الأول: أنّ أول الآية وآخرها يدل على ذلك، أما أولها فإنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال: ﴿**إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾، وأجمعوا على أنّ المراد منه مهاجرته إلى الشام، ثم قال: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾.

فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلاّ إسحاق، ثم قال بعده: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ**﴾. وذلك يقتضي أن يكون المراد من هذا الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام، فثبت أنّ مقدمة هذه الآية تدل على أنّ الذبيح هو إسحاق، وأما آخر الآية فهو أيضاً يدل على ذلك، لأنه تعالى لما تمم قصة الذبيح قال بعده: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ**﴾. ومعناه أنه بشره بكونه نبياً من الصالحين، وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على أنه تعالى إنما بشره بهذه النبوة لأجل أنه تحمل هذه الشدائد في قصة الذبيح، فثبت بما ذكرنا أنّ أول الآية وآخرها يدل على أنّ الذبيح هو إسحاق عليه السلام.

الحجة الثانية: على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف عليه‌السلام من يعقوب إسرائيل نبيّ الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله.

فهذا جملة الكلام في هذا الباب، وكان الزجاج يقول: الله أعلم أيهما الذبيح، والله أعلم. واعلم أنه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم في موضع الذبح فالذين قالوا

الذبيح هو إسماعيل قالوا: كان الذبح بمنى، والذين قالوا: إنه إسحاق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس، والله أعلم.[١]

فيما الطائفة الثانية: لم تفرق بين هذا المقطع وبين المقاطع الثلاثة، وبالتالي جعلت البشارة الواردة فيه وفي جميع المقاطع بإسحاق، وكذا هو الذبيح. ولم ترَ فرقاً بين الآيات التي ذكرت فيها البشارة بإسحاق ووصف فيها بأنه غلام عليم، وبين آية الصافات، التي وصف فيها الغلام بأنه غلام حليم.. فلا يرون أنَّ هذا الوصف يدلُّ على أنَّ الغلامين مختلفان. وقد ذكر الرازي حجّتين لمن تبنى هذا الرأي. ذكرناهما أعلاه.

فالطبري في تفسيره، وكذا في تاريخه، لا يفرق بين البشارة في السور: هود، الحجر، الذاريات، والتي كانت بإسحاق. وبين البشارة في سورة الصافات، فعنده هي بشارة واحدة وهي بإسحاق دون إسماعيل وإن تعددت مواقعها وسياقاتها .. وبما أنَّ إسحاق هو من بُشر به، فهو الذبيح أيضاً ، وتبعه في هذا عدد من الرواة والمفسرين.

وأسند هذا القول لكل من عكرمة وقتادة عن الآية: ﴿**فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ**﴾، فالأول قال: هو إسحاق. والثاني قال: بشر بإسحاق، قال: لم يُثْنَ بالحلم على أحد غير إسحاق وإبراهيم.

ثمَّ واصل الطبري كلامه حول البشارة بإسحاق حينما تحدث عن قصة الذبيح في قوله: ﴿**قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي المَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾. يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم خليل الرحمن لابنه: ﴿**يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي المَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾، وكان فيما ذكر أن إبراهيم نذر حين بشَّرته الملائكة بإسحاق ولداً أن

---

١. تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الرازي (ت ٦٠٦ هـ)؛ سورة الصافات ١٠١ –١٠٧. المسألة الثانية، بتصرف بسيط.

يجعله إذا ولدته سارّة لله ذبيحاً، فلما بلغ إسحاقُ مع أبيه السَّعْي أُرِي إبراهيم في المنام، فقيل له: أوفِ لله بنذرك، ورؤيا الأنبياء يقين، فلذلك مضى لما رأى في المنام، وقال له ابنه إسحاق ما قال.

هذا وأنَّ الطبري ذكر كلا القولين في إسحاق وفي إسماعيل، وما ورد فيهما من أخبار، وأخبار مع ذكرها للبشارة والذبح سكتت عن ذكر الاسم، ولكثرتها وخوف الإطالة، أعرضنا عن ذكرها، فلتراجع في محلّها.

وخلص أخيراً إلى أنَّ أولى القولين بالصواب في المفْدِيّ من ابني إبراهيم خليل الرحمن على ظاهر التنزيل قول من قال: هو إسحاق؛ لأنّ الله قال: ﴿**وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**﴾، فذكر أنه فَدَى الغلامَ الحليمَ الذي بُشِّر به إبراهيم حين سأله أن يهب له ولداً صالحاً من الصالحين، فقال:

﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، فإذ كان المفدِيّ بالذبح من ابنيه هو المبشَّر به، وكان الله تبارك اسمه قد بين في كتابه أنّ الذي بُشِّر به هو إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فقال جلّ ثناؤه:

﴿**فَبَشَّرْناهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾، وكان في كلّ موضع من القرآن ذكر تبشيره إياه بولد، فإنما هو معنّى به إسحاق، كان بيِّناً أن تبشيره إياه بقوله: ﴿**فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ**﴾، في هذا الموضع نحو سائر أخباره في غيره من آيات القرآن.

ثمَّ واصل كلامه قائلاً: إنّ الله أخبر جلّ ثناؤه في هذه الآية عن خليله أن بشَّره بالغلام الحليم عن مسألته إياه أن يهب له من الصالحين، ومعلوم أنه لم يسأله ذلك إلاّ في حال لم يكن له فيه ولد من الصالحين، لأنه لم يكن له من ابنيه إلاّ إمام الصالحين، وغير موهوم منه أن يكون سأل ربّه في هبة ما قد كان أعطاه ووهبه له. فإذ كان ذلك كذلك فمعلوم أنّ الذي ذكر تعالى ذكره في

هذا الموضع هو الذي ذكر في سائر القرآن أنه بشَّره به، وذلك لا شك أنه إسحاق، إذ كان المفديّ هو المبشَّر به. وأمّا الذي اعتلّ به من اعتلّ في أنه إسماعيل، أنّ الله قد كان وعد إبراهيم أن يكون له من إسحاق ابن، فلم يكن جائزاً أن يأمره بذبحه مع الوعد الذي قد تقدم فإنّ الله إنما أمره بذبحه بعد أن بلغ معه السعي، وتلك حال غير ممكن أن يكون قد وُلد لإسحاق فيها أولاد، فكيف الواحد؟

وأما اعتلال من اعتل بأنّ الله أتبع قصة المفديّ من ولد إبراهيم بقوله: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا**﴾، ولو كان المفديّ هو إسحاق لم يبشَّر به بعد، وقد ولد، وبلغ معه السعي، فإنّ البشارة بنبوّة إسحاق من الله فيما جاءت به الأخبار جاءت إبراهيم وإسحاق بعد أن فُدِي تكرمة من الله له على صبره لأمر ربّه فيما امتحنه به من الذبح، وقد تقدمت الرواية قبلُ عمن قال ذلك. وأما اعتلال من اعتلّ بأنّ قرن الكبش كان معلقاً في الكعبة فغير مستحيل أن يكون حُمِل من الشام إلى مكة. وقد رُوي عن جماعة من أهل العلم أنّ إبراهيم إنما أُمِر بذبح ابنه إسحاق بالشام، وبها أراد ذبحه.[1]

وكذا القرطبي في تفسيره، وقبل أن يبدأ بكلام طويل يتضمن أقوالاً وروايات حول ابني إبراهيم عليهم السلام بخصوص هاتين المسألتين، ذهب إلى أنَّ إسحاق هو الذبيح، نجد هذا فيما ذكره في المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، لما عرّفه الله أنه مخلّصه دعا اللّه ليعضُده بولد يأنس به في غُرْبته... قال الله تعالى: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾، أي إنه يكون حليماً في كبره، فكأنه بُشِّر ببقاء

---

١. تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت٣١٠هـ)؛ الصافات:١٠٠-١١٢؛ وتاريخ الطبري ١ : ١٥٨-١٦٣.

ذلك الولد؛ لأنّ الصغير لا يوصف بذلك، فكانت البشرى على ألسنة الملائكة كما تقدّم في «هود». ويأتي أيضاً في «الذاريات».

وفي مواضع أُخر راح يذكر الاختلاف، ويؤيد القول الذاهب إلى كون المبشر به والذبيح هو إسحاق، فقال :

وٱختلف العلماء في المأمور بذبحه. فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق. وممن قال بذلك العباس بن عبد المطلب وٱبنه عبد الله، ثمَّ يقول: وهو الصحيح عنه.

روى الثوريّ وابن جريج يرفعانه إلى ابن عباس قال: الذبيح إسحاق. وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنّ رجلاً قال له: يا بن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله عليهم السلام. وقد روى حماد بن زيد يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إنّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام».

روى أبو الزبير عن جابر قال: الذبيح إسحاق. وذلك مروي أيضاً عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وعن عبد الله بن عمر: أنّ الذبيح إسحاق. وهو قول عمر رضي الله عنه. فهؤلاء سبعة من الصحابة.

وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقَمة والشّعبي ومجاهد وسعيد بن جُبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعِكرمة والقاسم بن أبي بَزَّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط والزهريّ والسديّ وعبد الله بن أبي الهذيل ومالك بن أنس، كلهم قالوا: الذبيح إسحاق. وعليه أهل الكتابين اليهود والنصارى، واختاره غير واحد منهم النحاس والطبري وغيرهما.

قال سعيد بن جبير: أُرِيَ إبراهيمُ ذبح إسحاق في المنام، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة، حتى أتى به المنحر من مِنىً؛ فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن

يذبح الكبش فذبحه، وسار به مسيرة شهر في رَوْحة واحدة طويت له الأودية والجبال. وهذا القول أقوى في النقل عن النبيّ صلى الله عليه وآله وعن الصحابة والتابعين.

وقال آخرون: هو إسماعيل. وممن قال ذلك أبو هريرة وأبو الطفيل عامر بن واثلة. وروي ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضاً، ومن التابعين سعيد بن المسيّب والشّعبي ويوسف بن مِهْران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظيّ والكلبي وعلقمة.

وسئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح فأنشد:

إنّ الذبيح هُدِيتَ إسماعيلُ	نَطقَ الكتابُ بذاك والتنزيلُ
شرفٌ به خصّ الإلهُ نبيَّنا	وأتى به التفسيرُ والتأويلُ
إن كنتَ أُمَّتَه فلا تُنْكِرْ لَهُ	شرفاً به قد خَصّه التفضيلُ

وعن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عَزَب عنك عقلك! ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة.

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ الذبيح إسماعيل.

ويخلص القرطبي إلى أنَّ الأوّل أكثر عن النبيّ صلى الله عليه وآله وعن أصحابه وعن التابعين. واحتجوا بأن الله عزّوجلّ قد أخبر إبراهيم حين فارق قومه، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط فقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾،[1]

---

١. الصافات : ٩٩.

أنه دعا فقال: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، فقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾؛[1] ولأنّ الله قال: ﴿**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**﴾، فذكر أنّ الفداء في الغلام الحليم الذي بُشِّر به إبراهيم وإنما بُشِّر بإسحاق؛ لأنه قال: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ**﴾، وقال هنا: ﴿**بِغُلامٍ حَلِيمٍ**﴾، وذلك قبل أن يتزوّج هاجر وقبل أن يولد له إسماعيل، وليس في القرآن أنه بُشر بولد إلاّ إسحاق.

احتج من قال: إنه إسماعيل: بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحاق في قوله تعالى: ﴿**وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ**﴾،[2] وهو صبره على الذبح، ووصفه بصدق الوعد في قوله:

﴿**إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ**﴾؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفّى به؛ ولأن الله تعالى قال: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً**﴾، فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيًّا، وأيضاً فإن الله تعالى قال: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾، فكيف يؤمر بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد في يعقوب؟

وإيضاً ورد في الأخبار تعليق قرن الكبش في الكعبة، فدلّ على أن الذبيح إسماعيل، ولو كان إسحاق لكان الذبح يقع ببيت المقدس.

ثمَّ ردَّ هذه الأدلة الذاهبة إلى أنَّ الذبيح هو إسماعيل بقوله: وهذا الاستدلال كله ليس بقاطع؛ أما قولهم:

كيف يأمره بذبحه وقد وعده بأن يكون نبيّاً، فإنه يحتمل أن يكون المعنى: وبشرناه بنبوّته بعد أن كان من أمره ما كان؛ قاله ابن عباس...

ولعله أُمِر بذبح إسحاق بعد أن ولد لإسحق يعقوب. ويقال: لم يرد في القرآن

---

١. مريم : ٤٩.

٢. الأنبياء : ٨٥ .

أن يعقوب يولد من إسحق.

وأما قولهم: ولو كان الذبيح إسحاق لكان الذبح يقع ببيت المقدس، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جبير على ما تقدّم.

وقال الزجاج: الله أعلم أيهما الذبيح. وهذا مذهب ثالث...[١]

والنحاس يميل إلى أنّ الذبيح هو إسحاق، يظهر ذلك من ردّه لـدليلي بعـض أهل العلم على أنَّ الذبيح هو إسماعيل:

الأول: أنَّ إسماعيل كان بمكة وكان الذبح بمنى. فيقول: وهـذا لا يلـزم، روي عن ابن عباس أنه قال: كان الذبح بالشام، وقال عبيد بن عمير: كـان بالشـام، وإن كان مجاهد قد قال: كان بمنى.

الثاني: وقال بعضهم في القرآن ما يدل على أنه إسماعيل ، قال الله عزَّوجـلَّ: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾،[٢] فدلّ بهذا على أنّ إسحاق سيعيش حتى يولد له، فكيف يؤمر بذبحه؟

قـال أبـو جعفـر: وهـذا أيضـاً لا يثبـت حجّـة؛ لأنـه يجـوز أن يؤمر بذبحه، وقد علم أنه يولد له؛ لأنه يجوز أن يحييه الله جلّ وعزّ بعد ذلك.[٣]

أقول: إن كان يقصد الطبري، وهو كذلك، فلـم أجـد فيمـا تيسـر لي قـول أبي جعفر هذا باللفظ نفسه لا في تفسيره ولا في تاريخه. وإن كان أبو جعفر يرى أنّ المبشر به والذبيح هو إسحاق كما ذكرنا.

وأما الطائفة الثالثة: فقد ذهبت إلى أنَّ البشارة في السور الأخـرى؛ جـاءت

---

١. تفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت٦٧١هـ)؛ الصافات١٠٠–١١٢.

٢. هود : ٧١ .

٣. انظر معاني القرآن، للنحاس : الآيات .

بإسحاق، أما البشارة في مقطع سورة الصافات، فهي تعني إسماعيل، وهو الذبيح، ذلك الذي شارك أباه في رفع قواعد البيت الحرام.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]

فالشيخ مكارم يقول: «وبغضّ النظر عمّا قيل، فهناك قضيّة مسلّم بها، وهي أنّ الطفل الذي جاء به إبراهيم مع أُمّه إلى مكّة المكرّمة بأمر من الله ثمّ تركهما هناك، وساعده من بعد في بناء الكعبة المشرّفة، وأدّى مراسم الطواف والسعي هو إسماعيل، وهذا يدلّ على أنّ الذبيح هو إسماعيل؛ لأنّ عملية الذبح تكمل الأعمال المذكورة...»[2]

ومن أهم أدلة هذه الطائفة:

الآية: **﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً﴾**، التي جاءت بعد ذكر قصة الذبح... والخبر المروي عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: ... وانظر الأدلة الستة التي ذكرها الرازي أعلاه: «**أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْن**».

ومن هذه الطائفة ابن كثير، وخلاصة قوله: أنّ إسماعيل عليه السلام أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وأنّه أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، ففي نصّ كتابهم أنّ إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أنّ الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة أخرى: بكره،

---

١. البقرة : ١٢٧ .

٢. تفسير الأمثل : الآيات .

فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً إسحاق، ولا يجوز هذا، لأنه مخالف لنصّ كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق؛ لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك، وحرفوا وحيدك بمعنى: الذي ليس عندك غيره، فإنّ إسماعيل كان ذهب به وبأمّه إلى مكة، وهو تأويل وتحريف باطل؛ فإنه لا يقال وحيدك إلاّ لمن ليس له غيره، وأيضاً فإنّ أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وأما ردُّ ابن كثير على ما ذهب إليه جماعة من أهل العلم، وعلى ما نُقل عن بعض الصحابة من أن الذبيح هو إسحاق، فيقول : وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلم من غير حجّة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل؛ فإنه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾،[1]

ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق، قالوا: ﴿**إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ**﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾.[3]

أي: يولد له في حياتهم ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل،.. وأنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأنّ الله تعالى قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً؟

وإسماعيل وصف ههنا بالحليم؛ لأنه مناسب لهذا المقام... وقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد فاران، وينظر في

---

١. الصافات : ١١٢.

٢. الحجر : ٥٣ .

٣. هود : ٧١ .

أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك، والله أعلم.[١]

والشيخ الطبرسي، بعد أن يذكر اختلاف العلماء في الذبيح على قولين:

أحدهما: أنه إسحاق، وروي ذلك عن علي عليه السلام، وابن مسعود، وقتادة، وسعيد بن جبير، ومسروق، وعكرمة، وعطاء، والزهري، والسدي، والجبائي.

والقول الآخر: أنه إسماعيل، عن ابن عباس، وابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن، والشعبي، ومجاهد، والربيع بن أنس، والكلبي، ومحمد بن كعب القرظي..

يقول: وكلا القولين قد رواه أصحابنا عن أئمتنا عليهم السلام.

لكنه يقول: إلاّ أنّ الأظهر في الروايات أنه إسماعيل. ويعضده قوله بعد قصة الذبح: ﴿**وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصّالِحِينَ**﴾، ومن قال: إنه بشر بنبوة إسحاق، فقد ترك الظاهر، ولأنه قال في موضع آخر:

﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾. فبشره بإسحاق وبأنه سيولد له يعقوب فكيف يبشّره بذرية إسحاق ثم يأمره بذبح إسحاق مع ذلك، وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**أنا ابن الذبيحين**»، ولا خلاف أنه من ولد إسماعيل والذبح الآخر هو عبد الله أبوه. وحجة من قال: إنه إسحاق أنّ أهل الكتابين أجمعوا على ذلك؛ وجوابه إنّ إجماعهم ليس بحجة وقولهم غير مقبول.

وروى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال: كنت عند عمر بن عبد العزيز فسألني عن الذبيح؟ فقلت: إسماعيل. واستدللت بقوله: ﴿**وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصّالِحِينَ**﴾، فأرسل إلى رجل بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علماء اليهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده فقال

---

١. تفسير تفسير القرآن الكريم، لابن كثير (ت٧٧٤ هـ)؛ الصافات .

إسماعيل. ثم قال: والله يا أمير المؤمنين إنّ اليهود لتعلم ذلك ولكنّهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي كان من أمر الله فيه ما كان فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأنه أبوهم...[1]

والسيّد الطَّباطبائي؛ كان ممن يذهب إلى أنّ المبشر به والذبيح هو إسماعيل، يتضح هذا من ردّه لما قاله الطبري، حيث يقول السيد عن هذا المقطع من الصافات:

«واعلم أن هذه الآية المتضمنة للبشرى بإسحاق بوقوعها بعد البشرى السابقة بقوله: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾، المتعقبة بقوله: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ**﴾، إلى آخر القصة ظاهرة كالصريحة أو هي صريحة في أنّ الذبيح غير إسحاق وهو إسماعيل عليهما السلام».

وقد فصّل القول في هذا في سورة الأنعام، في قصة نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، وما جاء عن هذا المورد في القرآن الكريم، ولكن بعد أن يردَّ ما جاء في التوراة: أنّ الذبيح هو إسحاق دون إسماعيل عليهما السلام بقوله: «مع أنّ قصة إسكانه بأرض تهامة وبنائه الكعبة المشرّفة وتشريع عمل الحج الحاكي لما جرى عليه وعلى أُمّه من المحنة والمشقة في ذات الله، وقد اشتمل على الطواف والسعي والتضحية، كلّ ذلك تؤيِّد كون الذبيح هو إسماعيل دون إسحاق عليهما السلام».

وما وقع في إنجيل برنابا أنّ المسيح لام اليهود ووبَّخهم على قولهم بأنّ الذبيح هو إسحاق دون إسماعيل قال في الفصل ٤٤: «فكلم الله إبراهيم قائلاً: خذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد الجبل؛ لتقدمه ذبيحة، فكيف يكون إسحاق البكر، وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين؟».[2]

---

١. مجمع البيان : الآيات .

٢. إنجيل برنابا، الفصل ٤٤، آية :١١ـ١٢.

ثمَّ يقول: «... والمتدبر في الآيات الكريمة «الصافات: ٩٨ـ١١٣، لا يجد مناصاً دون أن يعترف أنّ الذبيح هو الذي ذكر الله سبحانه البشارة به في قوله: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾، وأنّ البشارة الأخرى التي ذكرها أخيراً بقوله: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، غير البشارة الأولى، والذي بشّر به في الثانية وهو إسحاق عليه السلام غير الذي بشّر به في الأولى، وأردفها بذكر قصة التضحية به».

ثمَّ يذكر ما قاله الطبري في تاريخه في الصفحات: ١٥٨، ١٦٢، ١٦٣، وما جاء في تفسيره، وقد ذكرنا قول الطبري أعلاه، ولم يوافق السيد العلاّمة عليه، حيث قال:

«وليت شعري، كيف خفي عليه أنّ إبراهيم عليه السلام لما سأل ربَّه الولد عند مهاجرته إلى الشام وعنده سارة ولا خبر عن هاجر يومئذ سأل ذلك بقوله: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، فسأل ربَّه الولد، ولم يسأل أن يرزقه ذلك من سارة حتى تحمل البشارة المذكورة عقيبه على البشارة بإسحاق، فإنما قال: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي**﴾، ولم يقل: رب هب لي من سارة؟!

وأما ما ذكره أنّ المعروف من سائر مواضع كتاب الله هو البشرى بإسحاق، فيجب أن نحمل البشرى في هذا الموضع عليه أيضاً، فيقول عنه:.. هو في نفسه قياس لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه؛ فإنّ الله سبحانه في هذه الآيات لما ذكر البشارة بغلام حليم، ثم ذكر قصة الذبح، استأنف ثانياً ذكر البشارة بإسحاق، ولا يرتاب المتدبّر في هذا السياق أن المبشر به ثانياً غير المبشر به أولاً فقد بشّر إبراهيم عليه السلام قبل اسحاق بولد له آخر، وليس إلاّ اسماعيل، وقد اتفق الرواة والنقلة وأهل التاريخ أنّ إسماعيل ولد لإبراهيم قبل إسحاق عليهم السلام جميعاً...[1]

---

١. تفسيرالميزان: ٢٤٠ـ٢٤١ في ذيل المقطع من الآية: ٧٤ـ٨٣ سورة الأنعام، بتلخيص.

وللشيخ الشنقيطي المتوفى في سنة ١٣٩٣هـ، وهي سنة وفاة الشيخ ابن عاشور، موضعان من التنزيل العزيز، يكتفي بهما دليلاً على أنَّ إسماعيل هو المبشّر به وهو الذبيح، وهذه خلاصتهما:

أحدهما: سياق آيات الصافات فهي واضحة جداً على ذلك، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ* ... كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾.

ثم قال بعد ذلك عاطفاً على البشارة الأولى: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾. فدل ذلك على أنّ البشارة الأولى شيء غير المبشر به في الثانية، لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه: فبشرناه بإسحاق، ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضاً: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ**﴾، فهو تكرار لا فائدة فيه ينزه عنه كلام الله، وهو واضح في أن الغلام المبشر به أولاً الذي فدي بالذبح العظيم هو إسماعيل، وأن البشارة بإسحاق نصّ الله عليها مستقلة بعد ذلك.

ثمَّ يقول..: إنَّ المقرر في الأصول: أنّ النص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله إذا احتمل التأسيس والتأكيد معاً وجب حمله على التأسيس ولا يجوز حمله على التأكيد إلا لدليل يجب الرجوع إليه، ومعلوم في اللغة العربية أنّ العطف يقتضي المغايرة، فآية الصافات هذه دليل واضح للمنصف على أنّ الذبيح إسماعيل لا إسحاق. ويستأنس لهذا بأنّ المواضع التي ذكر فيها إسحاق يقيناً عبر عنه في كلها بالعلم لا الحلم، وهذا الغلام الذبيح وصفه بالحلم لا العلم.

أما الثاني فهو الآية ٧١ من سورة هود: ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾. لأن رسل الله من الملائكة بشرتها بإسحاق، وأن إسحاق يلد يعقوب، فكيف يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه وهو صغير وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب؟ فلا ينبغي للمنصف الخلاف في ذلك بعد

دلالة هذه الأدلة القرآنية على ذلك، والعلم عند الله تعالى.[١]

أما ابن عاشور فقد أجاد كثيراً لا فقط حين راح يفرّق بين البشارتين، فجعل البشارة بإسحاق بشارة كرامة، فيما البشارة بإسماعيل بشارة استجابة دعاء، يقول: وهذا الغلام الذي بشّر به إبراهيم هو إسماعيل ابنه البكر، وهذا غير الغلام الذي بشّره به الملائكة، الذين أرسلوا إلى قَوم لوط في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ**﴾.

فذلك وُصف بأنه ﴿**عليم**﴾. وهذا وصُف بـ: ﴿**حَلِيمٍ**﴾. وأيضاً ذلك كانت البشارة به بمحضر سَارَةَ أمِّه، وقد جُعلت هي المبشرة في قوله تعالى: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ: يَا وَيْلَتَى أأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذاَ بَعْلِي شيخاً**﴾.

فتلك بشارة كرامة، والأولى بشارة استجابة دعائه، فلما ولد له إسماعيل تحقق أمل إبراهيم أن يكون له وارث من صلبه. فالبشارة بإسماعيل لما كانت عقب دعاء إبراهيم أن يهب الله له من الصالحين، عطفت هنا بفاء التعقيب، وبشارته بإسحاق ذكرت في هذه السورة معطوفة بالواو عطف القصة على القصة.

ثمَّ إنه ذكر قبل ذلك أنَّ الفاء في: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا**﴾ للتعقيب، والبشارة: الإخبار بخبر وارد عن قرب أو على بعد؛ فإن كان الله بشّر إبراهيم بأنه يولد له ولد، أو يوجد له نسل عقب دعائه كما هو الظاهر، وهو صريح في سفر التكوين في الإصحاح الخامس عشر، فقد أخبره بأنه استجاب له وأنه يهبه ولداً بعد زمان، فالتعقيب على ظاهره؛ وإن كان الله بشره بغلام بعد ذلك حين حملت منه هاجر جاريته بعد خروجه بمدة طويلة، فالتعقيب نسبي، أي بشرناه حين قدّرنا ذلك أول

١. تفسير أضواء البيان في تفسير القرآن، الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ).

بشارة بغلام، فصار التعقيب آئلاً إلى المبادرة كما يقال: تزوج فولد له؛ وعلى الاحتمالين، فالغلام الذي بشر به هو الولد الأول الذي ولد له وهو إسماعيل لا محالة.

وعن أدلته لما يتبناه من أنَّ المبشّر به والذبيح في سورة الصافات هو إسماعيل، فقد أحسن أيضاً وهو يورد أدلةً عديدةً على ذلك؛ فبعد أن يذكر أنه شاع من أخبار أهل الكتاب أنّ الذبيح هو إسحاق بن إبراهيم ـ بناءً على ما جاء في «سفر التكوين» في «الإصحاح» الثاني والعشرين، وعلى ما كان يقصّه اليهود عليهم، ولم يكن فيما علموه من أقوال الرسول صلى الله عليه وآله ما يخالفه ولا كانوا يسألونه ـ راح يبين أدلته، فيقول: التأمُّل في هذه الآية يُقَوِّي الظَّنَّ بأنَّ الذبيحَ إسماعيل؛ فإنه ظاهرٌ قويٌّ في أن المأمور بذبحه هو الغلام الحليم في قوله: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾، وأنه هو الذي سأل إبراهيمُ ربّه أن يهب له، فساقت الآية قصة الابتلاء بذبح هذا الغلام الحليم الموهوب لإبراهيم، ثم أعقبت قصته بقوله تعالى: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، وهذا قريب من دلالة النص على أنّ إسحاق هو غير الغلام الحليم الذي مضى الكلام على قصته؛ لأنّ الظاهر أنّ قوله: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ**﴾، بشارة ثانية، وأنّ ذكر اسم إسحاق يدلّ على أنه غير الغلام الحليم الذي أجريت عليه الضمائر المتقدمة. فهذا دليلٌ أول.

الدليل الثاني: أنَّ الله لما ابتلى إبراهيم بذبح ولده؛ كان الظاهر أنّ الابتلاء وقع حين لم يكن لإبراهيم ابنٌ غيره؛ لأنّ ذلك أكمل في الابتلاء..

الدليل الثالث: أنّ الله تعالى ذكر: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾، عَقِبَ ما ذكر من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، فدلّ على أنّ هذا الغلام الحليم الذي أمر بذبحه هو المبشَّر به استجابةً لدعوته، وقد ظهر أنّ المقصود من الدعوة أن لا يكون عقيماً يرثه عبيدُ بيته كما جاء في «سفر التكوين» وتقدم آنفاً.

الدليل الرابع: أنّ إبراهيم بَنَىَ بيتاً لله بمكة قبل أن يبني بيتاً آخر بنحو أربعين

سنة كما في حديث أبي ذرّ عن النبيﷺ ومن شأن بيوت العبادة في ذلك الزمان أن تقرّب فيها القرابين؛ فقربان أعزّ شيء على إبراهيم هو المناسب لكونه قرباناً لأشرف هيكل. وقد بقيت في العرب سنة الهدايا في الحج كل عام وما تلك إلاّ تـذكرة لأول عام أُمر فيه إبراهيم بذبح ولده وأنه الولد الذي بمكة.

الدليل الخامس: أنّ أعرابياً قال للنبيّﷺ يابن الذبيحين، فعلم مراده وتبسَّم، وليس في آباء النبيﷺ ذبيح غير عبد الله وإسماعيل.

الدليل السادس: ما وقع في «سفر التكوين» في الإِصحاح الثاني والعشرين أنّ الله امتحن إبراهيم فقال له: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هنالك محرقة على أحد الجبال الذي أقـول لـك»، إلى آخـر القصـة. ولم يكن إسحاق ابناً وحيداً لإِبراهيم فإنّ إسماعيل وُلد قبلـه بـثلاث عشـرة سـنة. ولم يزل إبراهيم وإسماعيل متواصلين وقد ذكر في الإِصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين عند ذكر موت إبراهيم عليه السلام؛ «ودفَنه إسحاق وإسماعيلُ ابناه»، فإقحام اسم إسحاق بعد قوله: ابنَك وحيدَك، من زيادة كاتب التوراة.

الدليل السابع: قال صاحب «الكشاف»: ويدل عليه أنّ قـرني الكـبش كانـا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت في حصار ابن الزبير. وقال القرطبي عن ابن عباس: «والذي نفسي بيده، لقد كان أول الإِسلام، وأنّ رأس الكبش لمعلق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يبس».

قال ابن عاشور: وفي صحة كون ذلك الرأس رأسَ كبش الفـداء مـن زمـن إبراهيم نظر.

الدليل الثامن: أنه وردت روايات في حكمة تشريع الرمي في الجمـرات مـن عهد الحنيفية أنّ الشيطان تعرّض لإِبراهيم ليصدّه عن المضيّ في ذبح ولده، وذلك من مناسك الحجّ لأهل مكة، ولم تكن لليهود سُنَّةُ ذَبْحٍ مُعَيَّنٍ. وذَكَرَ القـرطبي عـن ابـن

عباس: أنّ الشيطان عرض لإبراهيم عند الجمرات ثلاث مرات فرجمه في كل مرة بحصيات حتى ذهب من عند الجمرة الأخرى. وعنه: أنّ موضع معالجة الذبح كان عند الجمار، وقيل عند الصخرة التي في أصل جبل ثبير بمنى.

الدليل التاسع: أنّ القرآن صريح في أنّ الله لمّا بشر إبراهيم بإسحاق قرن تلك البشارة بأنه يولد لإسحاق يعقوب، قال تعالى: ﴿**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾. وكان ذلك بمحضر إبراهيم، فلو ابتلاه الله بذبح إسحاق؛ لكان الابتلاء صورياً؛ لأنه واثق بأنّ إسحاق يعيش حتى يولد له يعقوب؛ لأنّ الله لا يخلف الميعاد.

ولَمّا بشره بإسماعيل لم يَعِدْه بأنه سيُولد له وما ذلك إلا توطئة لابتلائه بذبحه، فقد كان إبراهيم يدعو لحياة ابنه إسماعيل. فقد جاء في «سفر التكوين» الإصحاح السابع عشر: «وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال الله: بل سارة تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده». ويظهر أنّ هذا وقع بعد الابتلاء بذبحه.

الدليل العاشر: أنه لو كان المراد بالغلام الحليم إسحاق؛ لكان قوله تعالى بعد هذا: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ تكريراً؛ لأنّ فعل: بشرناه بفلان، غالب في معنى التبشير بالوجود.

ثم يختم قائلاً: **فإن قلت**: فعلامَ جنحتَ إليه واستَدللت عليه من اختيارك أن يكون الابتلاء بذبح إسماعيل دون إسحاق، فكيف تتأول ما وقع في «سفر التكوين»؟

قلت: أرى أنّ ما في «سفر التكوين» نُقِل مشتّتاً غير مرتبة فيه أزمان الحوادث بضبط يعين الزمن بين الذبح وبين أخبار إبراهيم، فلما نقَل النقلةُ التوراة بعد ذهاب أصلها عقب أسر بني إسرائيل في بلاد أشور زمن بختنصر، سجلت قضية الذبيح في جملة أحوال إبراهيم عليه السلام وأدمج فيها ما اعتقده بنو إسرائيل في

غربتهم من ظنهم الذبيح إسحاق. ويدل لذلك قول الإصحاح الثاني والعشرين: «وحدث بعد هذه الأمور أنّ الله امتحن إبراهيم فقال خذ ابنك وحيدك» الخ؛ فهل المراد من قولها: بعد هذه الأمور، بعد جميع الأمور المتقدمة أو بعد بعض ما تقدم.[١]

فهذه عشرة أدلة وزيادة، أوردها الشيخ ابن عاشور، فيما ذكر ابن القيم أنّ هناك عشرين دليلاً... لكني لم أجد لها ذكراً لا في تفسيره ولا فيمن ذكر ذلك عنه، مع حرصي على الوصول إليها.

الروايات:

أقول: إنَّ روايات الفريقين مختلفة، حتى أنها شكلت ثلاث طوائف، طائفة نصّت على إسماعيل، فيما أخرى نصّت على إسحاق، وثالثة لم تصرح بأيهما.[٢]

وعن روايات الفريقين يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله: «وأما الروايات، فالتي وردت منها من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تذكر أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام»؛ ولكنه يقول في البحث الروائي من سورة الصافات في الآيات ١٠١ـ١١٣: «وبهذا المضمون (الذبيح إسماعيل عليه السلام) روايات كثيرة أخرى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وقد وقع في بعض رواياتهم أنه إسحاق وهو مطروح لمخالفة الكتاب. والتي رويت من طرق أهل السنة والجماعة مختلفة: فصنف يذكر إسماعيل، وصنف يذكر إسحاق عليهما السلام، غير أنك عرفت أن الصنف الأول هو الذي يوافق الكتاب...».

وقد ذكرنا أنّ الشيخ الطبرسي بعد أن يذكر اختلاف العلماء في الذبيح، وأنهم

---

١. التحرير والتنوير .

٢. انظر تفسير الطبري؛ الآيات من سورة الصافات .

على قولين.

يقول: «وكلا القولين قد رواه أصحابنا عن أئمتنا عليهم السلام إلاّ أنّ الأظهر في الروايات أنه إسماعيل...».[1]

إنه إسحاق:

ففي رواية طويلة تتحدث عن قصة الذبيح: محمد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم، عن أبيه عن... عن أبي بصير، أنه سمع أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام يذكران جبرئيل: «... فلما جاءت سارة فأخبرت الخبر، قامت إلى ابنها تنظر، فإذا أثر السكين خدوشاً في حلقه، ففزعت، واشتكت، و كان بدء مرضها الذي هلكت فيه...».[2]

والعبارة الأخيرة واضحة تشير إلى ابن سارة، وهو إسحاق.

في أصول الكافي علي بن إبراهيم عن... عن أبي الحسن عليه السلام، قال: «إنّ لله إرادتين ومشيتين: إرادة حتم وإرادة عزم، ينهى وهو يشاء ويأمر وهو لا يشاء... وأمر إبراهيم أن يذبح إسحاق ولم يشأ أن يذبحه، ولو شاء لما غلبت مشية إبراهيم مشية الله.

وفي الكافي عدة من أصحابنا عن جعفر بن إبراهيم عن سعد بن سعد قال: قال أبوالحسن عليه السلام: «لو علم الله عزّوجلّ خيراً من الضأن لفدى به إسحاق».

إنه إسماعيل:

عن داود بن كثير الرقي، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أيهما كان أكبر:

---

١. تفسير الميزان؛ تفسير مجمع البيان : الآيات من سورة الصافات.

٢. انظر الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني رحمه الله عن الكافي.

إسماعيل، أو إسحاق، وأيهما كان الذبيح؟

فقال: «كان إسماعيل أكبر من إسحاق بخمس سنين، و كان الذبيح إسماعيل، و كانت مكة منزل إسماعيل، و إنما أراد إبراهيم أن يذبح إسماعيل أيام الموسم بمنى، قال: و كان بين بشارة الله إبراهيم بإسماعيل وبين بشارته بإسحاق خمس سنين، أما تسمع لقول إبراهيم عليه السلام، حيث يقول: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّالِحِينَ**﴾؟ إنما سأل الله عزّوجلّ أن يرزقه غلاماً من الصالحين، و قال في سورة الصافات: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾، يعني إسماعيل من هاجر. قال: ففدى إسماعيل بكبش عظيم.

فقال أبوعبدالله عليه السلام: ثم قال: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ**﴾، يعني بذلك إسماعيل قبل البشارة بإسحاق، فمن زعم أن إسحاق أكبر من إسماعيل، و أن الذبيح إسحاق فقد كذب بما أنزل الله عزّوجلّ في القرآن من نبئهما.

وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سأل عن صاحب الذبح قال: «هو إسماعيل». وعن زياد بن سوقة عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن صاحب الذبح فقال: «إسماعيل عليه السلام». وعن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن صاحب الذبح فقال: «هو إسماعيل عليه السلام».

في الكافي علي بن محمد عن سهل بن زياد عن بعض أصحابه أظنه محمد بن إسماعيل قال: قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «لو خلق الله عزّوجلّ مضغة أطيب من الضأن لفدى بها إسماعيل عليه السلام».

وبعض الأخبار اكتفت بذكر الحادثة خالية من الاسمين إسماعيل أو إسحاق.[1]

---

١. انظر تفسير البرهان، ومجمع البيان: الآيات. وتفسير نور الثقلين للشيخ عبد علي بن جمعة الحويزي ٤ ؛ سورة الصافات؛ رقم: ٧٧، ٧٩، ٨١، ٨٢، ٧٥، ٩١. وغيرها.

فالروايات اختلفت في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فمنها ذكرت إسماعيل وأخرى ذكرت إسحاق وثالثة لم تذكر أيهما، وقد ذكرنا أنَّ صاحب مجمع البيان يؤكد هذا الاختلاف في الروايات المنسوبة إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام، لكنه يذهب إلى أنَّ الأظهر في الروايات أنه إسماعيل. ويعضده قوله بعد قصة الذبح: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وكذا هو موقف العلاّمة الطباطبائي؛ الذاهب إلى أنَّ ما وقع في بعض الروايات أنه إسحاق؛ يعدُّ مخالفاً للكتاب، فيما الصنف الذي يذكر إسماعيل يوافق الكتاب، وبالتالي يطرح ما خالف الكتاب ويأخذ بما وافقه.

فيما عدَّ الشيخ مكارم تلك الروايات القائلة بأنّ إسحاق هو الذبيح شاذّة، وأنها متأثرة بالإسرائيليات أو أنها من وضع اليهود؛ حيث يقول: «... وفي مقابل هذه الروايات الكثيرة المتناسبة مع ظاهر الآيات القرآنية، هناك روايات شاذّة تدلّ على أنّ إسحاق هو المقصود (بذبيح الله) ولا تتطابق مع روايات المجموعة الأُولى ولا مع ظاهر الآيات القرآنية».

ويقول أيضاً: «... إنّ كتاب (التوراة) الحالي والمعروف بالعهد القديم يؤكّد على أنّ الذبيح كان إسحاق.

هنا يستشف أنّ بعض الروايات الإسلامية غير المعروفة، والتي تؤكّد على أنّ إسحاق هو (ذبيح الله) متأثّرة ببعض الروايات الإسرائيلية، ويحتمل أنّ اليهود وضعوها، وذلك لأنّهم من ذريّة (إسحاق)، وقد حاولوا نسب هذا الفخر لهم، حتّى ولو كان عن طريق تزييف الوقائع والحقائق، وسلبه من المسلمين الذين كان نبيّهم نبيّ الرحمة أحد أحفاد إسماعيل.

على أيّة حال، فإنّ ظواهر آيات القرآن الكريم هي أقوى دليل لنا، إذ توضّح بصورة كافية، أنّ الذبيح هو إسماعيل، رغم أنّه لا فرق بالنسبة لنا إن كان

الذبيح إسماعيل أو إسحاق، فالإثنان هما أبناء إبراهيم عليه السلام، وكلاهما من أنبياء الله العظام، ولكن الهدف هو توضيح هذه الحادثة التاريخية».[١]

﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾

في معاجم اللغة: من الفعل فَداه يفدي فِدًى وفِداءً: استنقذه بمال أو غيره فخلّصه مما كان فيه، يقال: فداه بماله وفداه بنفسه فهو فاد والجمع: فُدَاة. والمستنقذ: مَفدِيٌّ. الفِداءُ: ما يُقدّم من مال ونحوه؛ لتخليص المَفدِيِّ، وجعل الشيء مكان الشيء لدفع الضرر عنه.. والذبح مصدر ذبحت والذبح أيضاً ما يذبح وهو المراد في هذه الآية، وهو المذبوح وما يذبح ومعناه أنا جعلنا الذبح بدلاً عنه كالأسير يفدى بشيء.

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، الذِّبْحُ اسمُ المذبوح وجمعه ذبوح، كالطحن اسم المطحون. والذبح بالفتح المصدر.

وكذا ابن عاشور:... والذِبح بكسر الذال: المذبوح ووزن فِعل بكسر الفاء وسكون عين الكلمة يكثر أن يكون بمعنى المفعول مما اشتق منه مثل: الحِب والطِحن والعِدل.

والفِدَى والفداء: إعطاء شيء بدلاً عن حق للمعطَى، ويطلق على الشيء المفدَى به من إطلاق المصدر على المفعول.

وإعراباً الواو: عاطفة، وفديناه: فعل وفاعل ومفعول به؛ والجملة معطوفة على ناديناه، وبذبح: جار ومجرور متعلقان بفديناه، والذبح: اسم ما يذبح كبشاً كان أم وعلاً.

ابن عاشور: وجملة ﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾ يظهر أنها من الكلام الذي خاطب الله به إبراهيم، والمعنى: وقد فدينا ابنَك بذبح عظيم، ولولا هذا التقدير تكون حكاية نداء

---

١. انظر تفسير الأمثل للشيخ مكارم الشيرازي : الآيات .

الله إبراهيم غير مشتملة على المقصود من النداء، وهو إبطال الأمر بذبح الغلام.

وأسند الفداء إلى الله؛ لأنه الآذِن به، فهو مجـاز عقلـي، فـإنّ الله أوحـى إلى إبراهيم أن يذبح الكبش فداء عن ذبح ابنه، وإبراهيم هو الفـادي بـإذن الله، وابـن إبراهيم مُفْدًى.

﴿بذِبْحٍ﴾

وإن تعددت أقوالهم في الذبح؛ سواء أكان من الضأن وجـده إبـراهيم مهيّـأ بفعل ربّه وإرادته؛ ليذبحه بدلاً من الغلام الحليم. أو هو الكبش الذي تقبلـه الله مـن هابيل حين قربه إليه، أو هو كبش أملح انحط من الجبل، ونـودي إبـراهيم فالتفـت إليه فأخذه فذبحه، أو هو كبش أبيض أقرن أعين، ما إن التفت إبراهيم حتى وجده.. وفيه قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش، أو هو كبش أرسله الله من الجنة قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً. أو هو الذي تقرب به هابيل بـن آدم إلى الله تعالى فقبله، وكان في الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به إسماعيل، أو فـدي بوعل أهبط عليه من ثَبير، أو هو كبش من الغنم وكفى.. وفي رواية عن محمـد بـن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن كبش إبراهيم عليه السلام ما كان لونه قال: «أملح أقرن، ونزل من السماء على الجبل الأيمن من مسجد منى بحيـال الجمـرة الوسـطى، وكان يمشي في سواد، ويأكل في سواد، وينظر في سواد، ويبعر في سـواد، ويبـول في سواد».

﴿عَظِيمٍ﴾

فإنَّ المهم أنّ التنزيل العزيز وصفه أنه ﴿عَظِـيم﴾ وقد فدي به إسماعيل، وبعد أن ذبحه تصدق بلحمه على المساكين، فصار عمله عليه السلام هذا سـنّةً ومنسـكاً مباركاً...

وعظيم: صفة لذبح، **أي عظيم القدر ولم يرد عظيم الجثة؛ وإنما عظَّمَ قَدْرَه** لأنه كان من عند الله كوَّنه ولم يكن عن نسل. وقيل: لأنه فداء عبد عظيم ، **أو لأنه فَدَى به الذَّبيح، أو لأنه مُتقبَّلٌ.** أو لأن قدر غيره من الكباش يصغر بالإِضافة إليه، أو لأنه رعى في الجنة أربعين خريفاً،...

قال النحاس: عظيمٌ في اللغة يكون للكبير وللشريف. وأهل التفسير على أنه هاهنا للشريف، أو المتقبل..

وعن تفسير الرازي:.. وأما قوله: ﴿**عظِيم**﴾، فقيل: سمي عظيماً لعظمه وسمنه، وقال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيماً وقد رعى في الجنة أربعين خريفاً، وقيل: سمي عظيماً لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداءً عن ولد إبراهيم..

ابن عاشور: ووصفه بـ ﴿**عَظِيمٍ**﴾، بمعنى شرف قدر هذا الذبح، وهو أنّ الله فدَى به ابن رسولٍ وأبقى به من سيكون رسولاً فعِظمه بعظم أثره، ولأنه سخره الله لإِبراهيم في ذلك الوقت وذلك المكان.[١]

لقد صار ذلك الغلام المبشّر به من قبل السماء، موضوعاً لرؤيا أبيه، وأي رؤيا؛ رؤيا نبيٍّ تتساوى بحقّه يقظته ونومه، فكما يقظته حقٌّ فمنامه وما يرى فيه حقٌّ أيضاً، هكذا هو حكم الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم دون غيرهم من الناس؛ لهذا صارت قصة الذبح في هذا المقطع من الصافات، لا فقط تاريخاً يُقرأ، بل أثراً يُتبع، ومنسكاً يُؤدى من قبل المسلمين في كلّ عام، عبر فقه مفصل، إنه فقه الأضاحي، الذي أوجب على الحجيج التضحية في يوم يُعدُّ من أكبر الأعياد، وقد أخذ اسمه من تلك القصة، إنه يوم النحر، وإنه عيد الأضحى المبارك؛ والأضحية:

---

١. المعجم الوسيط، الفاء؛ مجمع البيان، للطبرسي؛ إعراب القرآن الكريم، ٨ : ٢٩٦؛ الجامع لأحكام القرآن؛ تفسير مجمع البيان؛ وتفسير الرازي؛ وتفسير ابن كثير؛ والتحرير والتنوير، وغيرها: الآية.

جمع أضاحٍ وأضاحي، **سميت بأول أزمنة فعلها، الضحوة والضحى**، ما يذبح من النعم في أول أزمنة فعلها؛ وهو الضحى من اليوم العاشر من ذي الحجة، قربة إلى الله تعالى، يقول الشيخ الطبرسي: «ضحى الشمس صدر وقت طلوعها وضحى النهار صدر وقت كونه وأضحى يفعل كذا إذا فعله في وقت الضحى وضحى بكبش أو غيره إذا ذبحه في وقت الضحى من أيام الأضحى ثم كثر ذلك حتى لو ذبح في غير ذلك الوقت لقيل ضحى».[1]

كلُّ هذا راح يذكرنا بمعاناة ذلك النبيِّ العظيم، ووحدته، وهجرته، وبدعائه، وبشارته، وبفرحته، وهو يرى ابنه وقد صار شاباً يملأ العيون قوّةً وحركةً وجمالاً، وبتلبيته لنداء ربّه حينما أبلغته السماء عبر رؤية صادقة لا ريب فيها، راح يبلغ ابنه بها؛ ليُشركه في الأمر، وحتى «**لا يأخذ ابنه على حين غرة لينفذ إشارة ربّه وينتهي، إنما يعرض الأمر عليه.. فابنه ينبغي أن يعرف، وأن يأخذ الأمر طاعةً وإسلاماً، لا قهراً واضطراراً؛ لينال هو الآخر أجر الطاعة ويتذوق حلاوة التسليم**».

وينطق الغلام الحليم، امتثالاً وطاعةً وتسليماً في حوارية رائعة صريحة:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

إنَّ موقف إبراهيم لموقف ما أعظمه! تتجسد فيه عظمة إيمانه وجلالة طاعته، وصدق تسليمه المطلق لله تعالى، عبر بلاء مبين... كيف لا؛ وهو «الشيخ المقطوع من الأهل والقرابة. المهاجر من الأرض والوطن. ها هو ذا يرزق في كبرته وهرمه بغلام. طالما تطلع إليه. فلما جاءه جاء غلاماً ممتازاً يشهد له ربُّه بأنه حليم. وها هو ذا ما يكاد يأنس به، وصباه يتفتح، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة... ها هو ذا ما

---

١. مجمع البيان، سورة الشمس : ١.

يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد، حتى يرى في منامه أنه يذبحه...».

فجاءت تلبيته عليه السلام لإشارة من ربّه بالتضحية سريعةً دون توقف أو تردد، كما أنّه لا يلبي في انزعاج، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب... كلاّ إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء. يبدو ذلك في كلماته لابنه، وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب، قال: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾.

فجاء جواب ابنه الغلام الحليم امتثالاً وتسليماً وتصديقاً لرؤيا أبيه، وهو بموقفه هذا يرتقي إلى ذاك الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه، ﴿**قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾.

وأيضاً يقول سيد قطب: وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما، فاعتبرهما قد أدّيا وحقّقا وصدّقا.

﴿**وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**﴾.

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلاً. فالله لا يريد إلاّ الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه، ولو كان هو الابن فلذة الكبد، ولو كانت هي النفس والحياة. وأنت يا إبراهيم قد فعلت، جدت بكل شيء، وبأعز شيء، وجدت به في رضى وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين. فلم يبق إلاّ اللحم والدم. وهذا ينوب عنه ذبح. أي ذبح من دم ولحم! ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت. يفديها بذبح عظيم...

ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان، وجمال الطاعة، وعظمة التسليم...

الزمخشري: ﴿**قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا**﴾، وإنما كان يصدقها لو صحّ منه الذبح،

ولم يصحّ قلت: قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح: من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه، ولكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم عليه السلام، ألا ترى أنه لا يسمى عاصياً ولا مفرطاً، بل يسمى مطيعاً ومجتهداً، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم، وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل، ولا قبل أوان الفعل في شيء، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام فيه.

فإن قلت:

الله تعالى هو المفتدى منه: لأنه الآمر بالذبح، فكيف يكون فادياً حتى قال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾؟

قلت:

الفادي هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والله عزّوجلّ وهب له الكبش ليفدى به وإنما قال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾، إسناداً للفداء إلى السبب الذي هو الممكن من الفداء بهبته.

فإن قلت:

فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح. فما معنى الفداء، والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببدل؟

قلت:

قد علم بمنع الله أنّ حقيقة الذبح لم تحصل من فرى الأوداج وإنهار الدم، فوهب الله له الكبش؛ ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسماعيل، ولكن في نفس الكبش بدلاً منه.

فإن قلت:

فأي فائدة في تحصيل تلك الحقيقة، وقد استغنى عنها بقيام ما وجد من

إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان؟

قلت:

الفائدة في ذلك أن يوجد ما منع منه في بدله حتى يكمل منه الوفاء بالمنـذور وإيجاد المأمور به من كل وجه...

الطبرسي: «وقد استدل بهذه الآية من أجاز نسخ الشيء قبـل وقـت فعلـه، فقال: إنّ الله تعالى نهاه عن ذبحه بعد أن أمره به وقد أجيب عن ذلك بأجوبة:

أحدها: أنه سبحانه لم يأمر إبراهيم بالذبح الذي هو فري الأوداج، وإنما أمره بمقدمات الذبح من الإضجاع وتناول المدية وما يجري مجرى ذلك، والعرب قد تسمي الشيء باسم مقدماته ولهذا قال: ﴿**قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا**﴾، ولو كان أمره بالـذبح؛ لكـان إنما صدق بعض الرؤيا.

وأما الفداء بالذبح فلما كان يتوقعه من الأمر بالذبح ولا يمتنع أيضاً أن يكون فدية عن مقدمات الذبح؛ لأنّ الفدية لا يجب أن تكون من جنس المفدى، ألا تـرى أنّ حلق الرأس قد يفدى بدم ما يذبح، وكذلك لبس الثوب المخيط والجماع وغـير ذلك.

وثانيها: أنه عليه السلام إنما أمر بصورة الذبح وقد فعله؛ لأنه فرى أوداج ابنه، ولكنه كلما فرى جزءاً منه وجاوزه إلى غيره عاد في الحال ملتحماً.

فإن قلت: إنّ حقيقة الذبح هو قطع مكان مخصوص تزول معه الحياة.

فالجواب: إنّ ذلك غير مسلم؛ لأنه يقال: ذبح هذا الحيوان ولم يمت بعد، ولـو سلمنا أنّ حقيقة الذبح ذلك؛ لكان لنا أن نحمل الذبح على المجاز للدليل الدال عليه.

وثالثها: أنّ الله تعالى أمره بالذبح، إلاّ أنه سبحانه جعل على عنقه صفحة من نحاس، وكلما أمرَّ إبراهيم السكين عليه لم يقطع، أو كان كلما اعتمد على السـكين، انقلب، على اختلاف الرواية فيه. وهذا التأويل يسوغ إذا قلنا إنه كان مـأموراً بمـا

يجري مجرى الذبح، ولا يسوغ إذا قلنا: إنه أمر بحقيقة الذبح؛ لأنه يكون تكليف لما لا يطاق...».

ابن عاشور: فمعنى ﴿**قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا**﴾، قد فعلتَ مثل صورة ما رأيت في النوم أنك تفعله. وهذا ثناء من الله تعالى على إبراهيم بمبادرته لامتثال الأمر ولم يتأخر ولا سأل من الله نسخ ذلك.

والمراد: أنه صدق ما رآه إلى حدِّ إمرار السكين على رقبة ابنه، فلما ناداه جبريل بأن لا يذبحه كان ذلك الخطابُ نسخاً لما في الرؤيا من إيقاع الذبح، وذلك جاء من قِبل الله لا من تقصير إبراهيم، فإبراهيم صدَّق الرؤيا إلى أن نهاه الله عن إكمال مِثالها، فأطلق على تصديقه أكثرَها أنه صدَّقها، وجُعِل ذبح الكبش تأويلاً لذبح الولد الواقع في الرؤيا.[1]

وفي قصة الذبيح حكايات عديدة، كان منها:

أنّ إبراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال: يا بني خذ الحبل والمدية، وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب، فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به.

فقال: يا أبت اشدد رباطي فيَّ كيلا أضطرب، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمّي فتحزن، واستحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي؛ ليكون أهون فإن الموت شديد، واقرأ على أمّي سلامي، وإن رأيت أن ترد قميصي على أمّي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسهل لها.

فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ثم أقبل عليه

---

١. انظر في ظلال القرآن؛ والكشاف، للزمخشري؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ وتفسير التحرير والتنوير: الآيات.

يقبله وقد ربطه وهما يبكيان، ثم وضع السكين على حلقه، فقال: كبني على وجهي، فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة، وقد تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل، ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

وفي رمي الجمرات

ذكرت روايات وأخبار عديدة، وهي تدور حول الأساس التاريخي لهذا الرمي وبسبع حصيات، فغدا ذلك الذبح الذي منشؤه رؤيا إبراهيم عليه السلام واستجابة ابنه، وهذا الرمي من أعمال منى في فريضة الحج، ومن هذه الروايات:

ما جاء عن ابن عباس: خرج عليه كبش من الجنة قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ابنه، واتبع الكبش فأخرجه إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات، ثم أفلته عندها، فجاء إلى الجمرة الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات، ثم أفلته فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات، فأخرجه عندها، ثم أخذه فأتى به المنحر من منى فذبحه، فو الذي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام، وإنّ رأس الكبش لمعلّق بقرنيه في ميزابِ الكعبة قد حشَّ، يعني: يبس.

وعنه: إنّ إبراهيم لما أُمر بالمناسك، عرض له الشيطان عند المسعَى فسابقه، فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حَصَيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوُسْطَى، فرماه بسبع حَصيات حتى ذهب، ثم تلَّه للجَبين، ...

وعنه: «أنّ الشيطان عرض لإبراهيم عند الجمرات ثلاث مرات، فرجمه في كلّ مرة بحصيات حتى ذهب من عند الجمرة الأخرى.

وعنه: أنّ موضع معالجة الذبح كان عند الجمار وقيل عند الصخرة التي في

أصل جبل ثبير بمنى.. فالشيطان تعرّض لإبراهيم ليصدّه عن المضيّ في ذبح ولده...».

وفي رواية طويلة في قصة توبة آدم عليه السلام عن أبي عبد الله عليه‌السلام، نكتفي منها بمقطع رمي الجمرات بعد أن أخرجه جبرئيل إلى منى فبات بها، فلما أصبح أخرجه إلى عرفات،... وعلّمه الكلمات التي تلقاها من ربّه، و هي:

«**سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم...**». ثم ردّه إلى مكة فأتى به إلى الجمرة الأولى، فعرض له إبليس عندها، فقال: يا آدم، أين تريد؟ فأمره جبرئيل أن يرميه بسبع حصيات، وأن يكبر مع كل حصاة تكبيرة ففعل، ثم ذهب فعرض له إبليس عند الجمرة الثانية، فأمره أن يرميه بسبع حصيات، فرمى و كبر مع كل حصاة تكبيرة ثم ذهب فعرض له إبليس عند الجمرة الثالثة، فأمره أن يرميه بسبع حصيات ويكبر عند كل حصاة، فرمى و كبر مع كل حصاة تكبيرة، فذهب إبليس لعنه الله. و قال له جبرئيل: إنك لن تراه بعد هذا اليوم أبداً، فانطلق به إلى البيت الحرام، و أمره أن يطوف به سبع مرات، ففعل. فقال له: إن الله قد قبل توبتك، و حلت لك زوجتك...[1]

إذن الاختبار تمَّ، والبلاء المبين حصل، ذلك الذي يتميز فيه المخلص من غيره، وهو ابتلاءٌ وامتحانٌ لإبراهيم في صدق الخلة لله، وبتضحية أعزّ عزيز لديه، وأحب محبوب عنده، كلُّ ذلك لأمر ربّه تعالى.. وقد اجتازه وابنه الآخر المبتلى أيضاً بهذا البلاء المبين بجدارة، فنالا أجراً واسعاً، وثناءً عظيماً، وعاقبةً مباركةً، وبشائرَ خيرٍ، وذريةً صالحةً.. إنه جزاء أولئك المحسنين، أن قوبل إحسانهم بإحسان

---

١. انظر التفسير الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي؛ تفسير مجمع البيان، للطبرسي؛ تفسير ابن كثير؛ وتفسير البرهان، للشيخ هاشم الحسيني البحراني (ت ١١٠٧هـ).

أعظم، وجزاء أوفر، وثناء أجمل، وجميعها كتب لها الذكر الموصوف بالخلود، تستذكرها الأجيال ما دامت حيّةً باقيةً وإلى قيام الساعة، فكان ﴿**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ**﴾ حقّاً.

يقول سيد قطب: فهو مذكور على توالي الأجيال والقرون. وهو أمّة. وهو أبو الأنبياء وهو أبو هذه الأمّة المسلمة. وهي وارثة ملته. وقد كتب الله لها، وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم. فجعلها الله له عقباً ونسباً إلى يوم الدين.[1]

وتنتظر الأجيال ما مضى منها وما هو آتٍ ثوابَها في الآخرة: ﴿**مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾.

كيف لا يحصل إبراهيم على كلّ هذا، وعلى ما ستذكره الآيات الآتية؟!

و «عمليّة ذبح الابن البارّ المطيع على يد أبيه ـ كما يقول الشيخ مكارم ـ لا تعدّ عمليّة سهلة وبسيطة بالنسبة لأب انتظر فترة طويلة كي يرزقه الله بهذا الإبن، فكيف يمكن إماتة قلبه تجاه ولده؟ والأكثر من ذلك استسلامه ورضاه المطلق ـ من دون أي إنزعاج ـ لتنفيذ هذا الأمر، وتنفيذه كافّة مراحل العملية من بدايتها إلى نهايتها، بصورة لا يغفل فيها عن أي شيء من الإستعداد لعملية الذبح نفسياً وعمليّاً».

ثمَّ يقول أيضاً: «والذي يثير العجب أكثر هو التسليم المطلق لهذا الغلام أمام أمر الله، إذ استقبل أمر الذبح بصدر مفتوح وإطمئنان يحفّه اللطف الإلهي، واستسلام في مقابل هذا الأمر؛ لذا فقد ورد في بعض الروايات أنّ جبرئيل هتف «الله أكبر» «الله أكبر» أثناء عمليّة الذبح لتعجّبه».

فيما هتف إسماعيل «لا إله إلاّ الله، والله أكبر».

---

١. في ظلال القرآن : الآية .

ثمّ قال إبراهيم «الله أكبر ولله الحمد»

ثم يواصل الشيخ كلامه قائلاً: «وهذه العبارات تشبه التكبيرات التي نردّدها في يوم عيد الأضحى.

ولكي لا يبقى برنامج إبراهيم ناقصاً، وتتحقّق أمنية إبراهيم في تقديم القربان لله، بعث الله كبشاً كبيراً إلى إبراهيم؛ ليذبحه بدلاً عن ابنه إسماعيل، ولتصير سنّةً للأجيال القادمة، التي تشارك في مراسم الحجّ، وتأتي إلى أرض منى».[١]

وأخيراً، انظر كيف ختمت قصة البلاء المبين بمقطع قرآني جميل ومبارك، يتضمن رضاه تعالى عن إبراهيم عليه السلام، وسلامه عليه، وثناءه عليه، وبشارته الأخرى له وبركاته الدائمة...

﴿سَلاَمٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.[٢]

ابن عاشور:... إنا نجزي المحسنين كذلك التصديق، أي مثل عظمة ذلك التصديق نجزي جزاءً عظيماً للمحسنين، أي الكاملين في الإِحسان، أي وأنت منهم ولِما يتضمنه لفظ الجزاء من معنى المكافأة ومماثلة المجزي عليه، عُظم شأن الجزاء بتشبيهه بمشبه مشار إليه بإشارة البعيد المفيد بُعداً اعتبارياً، وهو الرفعة وعظم القدر في الشرف، فالتقدير: إنا نجزي المحسنين جزاء كذلك الإِحسان الذي أحسنتَ به بتصديقك الرؤيا، مكافأة على مقدار الإِحسان، فإنه بذل أعَزّ الأشياء عليه في طاعة ربّه، فبذل الله إليه من أحسن الخيرات التي بيده تعالى، فالمشبه والمشبه به معقولان،

---

١. تفسير الأمثل، للشيخ مكارم الشيرازي : الآيات .

٢. الصافات ١٠٨-١١٣ .

إذ ليس واحد منهما بمشاهد، ولكنهما متخيَّلان بما يتسع له التخيّل المعهود عند المحسنين مما يقتضيه اعتقادهم في وعْد الصادق من جزاءِ القادر العظيم، قال تعالى:

﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَان**﴾، ولِمَا أفاد اسم الإشارة من عظمة الجزاء، أكّد الخبر بـ: «إنَّ» لدفع توهم المبالغة، أي هو فوق ما تعْهده في العظمة وما تُقدره العقول وفهم من ذكر المحسنين أنّ الجزاء إحسان بمثل الإحسان، فصار المعنى: إنا كذلك الإحسان العظيم الذي أحسنته نجزي المحسنين، فهذا وعد بمراتب عظيمة من الفضل الرباني، وتضمن وعد ابنه بإحسان مثله من جهة نوط الجزاء بالإحسان، وقد كان إحسان الابن عظيماً ببذل نفسه وقد أكد ذلك بمضمون جملة: ﴿**إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِين**﴾، أي هذا التكليف الذي كلّفناك هو الاختبار البيّن، أي الظاهر دلالة على مرتبة عظيمة من امتثال أمر الله، واستعمل لفظ البلاء مجازاً في لازمه وهو الشهادة بمرتبةِ مَن لو اختُبر بمثل ذلك التكليف؛ لعُلمت مرتبته في الطاعة والصبر وقوة اليقين.

وجملة: ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِين**﴾، في محل العلة لجملة: ﴿**إِنَّا كذلك نجزى المحسنين**﴾...[1]

ونختم هذا بما ذكره سيد قطب في تفسيره: ﴿**سَلاَمٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾، سلام عليه من ربّه. سلام يسجل في كتابه الباقي. ويرقم في طوايا الوجود الكبير.

﴿**كَذَلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾، كذلك نجزيهم بالبلاء، والوفاء، والذكر، والسلام، والتكريم، ﴿**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾، وهذا جزاء الإيمان، وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين.

---

١. التحرير والتنوير: الآيات.

ثم يتجلّى عليه ربّه بفضله مرةً أخرى ونعمته، فيهب له إسحاق في شيخوخته، ويباركه ويبارك إسحاق، ويجعل إسحاق نبيّاً من الصالحين.

﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ ٱلصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ**﴾. وتتلاحق من بعدهما ذريتهما، ولكن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب، إنما هي وراثة الملّة والمنهج: فمن اتبع فهو محسن، ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد: ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ**﴾.[1]

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

❁ ❁ ❁

---

١. انظر في ظلال القرآن : الآيات.